نظريۀ العمل السياسى عند الشهيد السيد محمد باقر الصدر

مداخلۀ نقديۀ حول الاتجاه التشكيكى بإبداعات الإمام الشهيد الصدر(رض)

كُتب هذا البحث "نظريۀ العمل السياسى عند الشهيد السيد محمد باقر الصىدر" فى جمادى الثانيۀ ورجب من عام ١٤٠٨هـ‌ق. قبيل الذكرى الثَّامنۀ لاستشهاد آيۀ اللَّه العظمى الصَّدر (رض). ولا بد من أن ننبِّه إلى أنّ اللَّقب العلمى والدِّينى، فى أوساط الحوزۀ العلميَّۀ للشَّهيد الصَّدر، هو «آيۀ اللَّه العظمى»؛ حيث يعدّ هذا اللَّقب خاصَّاً بالمراجع المعترف بهم، ولكنَّنا اقتصرنا فى حديثنا على لقب «الشَّهيد» لما فيه من بعد معنوى وسياسى، واختصاراً فى الحديث.

وقد طُبع هذا البحث فى نسخ متعدِّدۀ لا تتجاوز الثَّلاثين نسخۀ، ووزِّع على عدد محدود أيضاً، ثم أدخلت عليه بعض التوضيحات، وطبع بهذا الشكل، وتوجد ملاحظات ونقاط تكميليۀ أخرى سيتمُّ درجها فى المستقبل إن شاء اللَّه، والبحث إنّما كتب بهدف التَّوثيق والأمانۀ التاريخيَّۀ وتدوين أفكار الشَّهيد الصَّدر ونظريَّاته ومواقفه كما فهمتها ورأيتها عن كثب. وأرجو من اللَّه القبول ومن القارئين والمطَّلعين أن ينظروا إليه نظرۀ موضوعيَّۀ بعيدۀ عن التحيُّز أو الظُّنون، واللَّه الموفق للسَّداد، وهو نعم المولى ونعم النصير.

المقدمۀ

عندما نريد أن نتناول النَّظريَّۀ السِّياسيَّۀ عند الشَّهيد الصَّدر (رض) لا بُدَّ من أن نفهم، منذ البدايۀ، المراد من مصطلح «النَّظريَّۀ السياسيۀ»؛ حيث يوجد جانبان من البحث فى هذا المجال: أحدهما الجانب الذى يرتبط بنظريَّۀ الحكم والدَّولۀ، والآخر الجانب الذى يرتبط بالعمل السياسى الحركى وإطاره العام فى المجتمع والأمَّۀ، ولا سيَّما فى ظروف، ما قبل قيام الدَّولۀ الشَّرعيۀ، سواء كانت الدَّولۀ القائمۀ كافرۀ أم إسلاميَّۀ جائرۀ.

وفى هذا البحث، نحاول أن نتناول الجانب الثَّانى، ونقصد به نظام العمل السِّياسى، أو الإطار العام للتَّحرُّک السِّياسى فى المجتمع الإسلامى لممارسة عمليَّة التغيير والهداية للنَّاس، ضمن الخطوط الثَّابتة والضَّوابط والمقاييس العامَّة والأخلاق الإسلاميَّة التى جاءت بها الشَّريعة والقرآن الكريم.

أمَّا الجانب الأوَّل، فقد كتب فيه الشَّهيد الصَّدر فى أواخر أيَّامه ضمن كرّاسات طُبعت تحت عنوان: «الإسلام يقود الحياة»، ولا سيَّما كرَّاس «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء» وكرَّاس «تصوُّر عن دستور الجمهوريَّة الإسلاميَّة»، وسوف نشير إجمالاً إلى تصوُّراته فى هذا المجال.

ونسبة «النَّظريَّة السِّياسيَّة» إلى الشَّهيد الصَّدر نقصد منها ما كان يفهمه فى تصوُّر هذا «النِّظام للعمل» و «الإطار العام» للتَّحرُّک فى الإسلام والشَّريعة الإسلاميَّة. ويمكن أن نتعرَّف إلى معالم وجهة نظره فى هذه النَّظريَّة السِّياسيَّة من خلال مراجعتنا الإجماليَّة للأعمال الفكرية والنَّشاطات السِّياسية التى قام بها، أو أسهم فيها، ومن خلال قراءتنا لأقواله وتصريحاته وبعض محاضراته، وهى كثيرة. ولكن يمكن أن نشير بشكل إجمالى إلى مجموعة منها:

فعلى مستوى الأعمال الفكريَّة يمكن أن نذكر ما دوَّنه الشَّهيد الصَّدر فى الكرَّاس الصَّغير الذى تناول فيه أطروحة المرجعيَّة الموضوعيَّة، أو ما كتبه من شرح أسس «الدَّولة الإسلاميَّة».[٢] وكذلک ما دوَّنه فى بعض رسائله الخاصَّة حول دلالة آية الشُّورى على أساس الحكم الإسلامى. وكذلک ما دوَّنه فى بعض الكرَّاسات التى كتبها، فى أواخر حياته، تحت عنوان: «الإسلام يقود الحياة»، مثل كرَّاس «دستور الجمهورية الإسلامية» و «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»، وكذلک تبنِّيه فأخيراًف لنظرية «ولاية الفقيه» التى يستند فيها إلى التوقيع المعروف المروى عن الإمام الحجَّة (عج)، وهو: «وأمَّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنَّهم حجَّتى عليكم، وأنا حجَّة اللَّه»[٣]

وعلى مستوى الأعمال والنَّشاطات السِّياسيۀ، يمكن أن نذكر منها إسهامه فى تأسيس «حزب الدَّعوۀ الإسلاميۀ» فى أواخر صيف ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م. ثم خروجه من الحزب فى صيف عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، وأيضاً إسهامه فى تأسيس «جماعۀ العلماء فى النجف الأشرف» وإسنادها، وكذلک إسناده لمرجعيَّۀ آيۀ اللّه العظمى المغفور له الإمام السيِّد الحكيم(قده) ومشاركته فى مجمل الأعمال السياسيَّۀ التى كانت تتصدَّى لها هذه المرجعيَّۀ، وكذلک رعايته للحركۀ الإسلاميَّۀ فى العراق بشكل عام، ثم تصوُّره لتطوُّر المرجعيَّۀ الدينيَّۀ وطيِّها للمراحل الأربع التى مرَّت بها والتى كانت آخرها مرحلۀ «القيادۀ»، ثم تأسيسه لبذرۀ شورى المرجعيَّۀ فى إطار مرجعيّته الخاصَّۀ وطرحه لمسألۀ فصل العمل المرجعى وجهازه عن العمل التنظيمى الخاص (الحزب) عملياً، ثم تطوّر ذلک إلى فكرۀ فصل الحوزۀ العلميۀ بشكل عام عن العمل التنظيمى الخاص (الحزب) وتصريحاته وفتاواه بهذا الصدد التى تعبّر عن موقف سياسى عملى ينطلق من جذور فكريۀ، ثم موقفه بعد ذلک من دور التَّنظيم الإسلامى فى الحركۀ السياسيۀ العامَّۀ والذى تجسَّد بتعيين ممثل له لدى بعض أطراف الحركۀ الإسلاميۀ، ثم تسليم بعض الأطراف الأخرى لقيادته بعد انتصار الثورۀ الإسلاميۀ، ومبادرته لتأسيس حركات ومكاتب إسلاميۀ فى الخارج وتعيين الممثِّلين الوكلاء والعلماء فى مختلف المناطق بعد تصدِّيه للمرجعيۀ الدينيۀ وقبل ذلک.

لقد كانت حياۀ الشَّهيد الصَّدر(رض) زاخرۀ بالأحداث والمواقف والأعمال والنَّشاطات السِّياسيۀ والفكريّۀ، ولذلک يحتاج هذا البحث إلى دراسۀ مستفيضۀ وتتبُّع لجميع الأقوال والنَّشاطات والكتابات التى دوّنها الشَّهيد الصَّدر، ولكن من خلال معايشۀ قريبۀ لمسيرۀ أعماله ومواقفه استمرَّت لمدۀ أكثر من أربع وعشرين سنۀ، أى منذ سنۀ ١٣٧٦هـ حتى سنۀ ١٤٠٠هـ التى استشهد فيها (رضوان اللّه عليه)، وكذلک من خلال مراجعۀ سريعۀ لمجمل أعماله، وبذلک يمكن أن نتعرّف إلى تصوُّر إجمالى واضح لنظريَّته السِّياسيَّۀ[۴].

ومن الواضح أنَّ البحث، فى هذا الموضوع الشائک، قد يثير بعض التحفظات، أو الأسئلۀ، أو ردود الفعل والانفعالات، لدى هذه الجماعۀ أو تلک، بسبب متبنَّياتها الفكريَّۀ والسِّياسيۀ أو مواقفها، مع

حرصها على أن لا تبدو بعيدة عن الشَّهيد الصَّدر، ولكن يبقى من الضَّرورى أن نثبت الأفكار والمواقف التى تبنَّاها الشَّهيد الصَّدر، باعتبار ذلک واجباً أخلاقيَّاً وعلميّاً وتاريخيّاً، ولذلک نرى فانسجاماً مع الظروف التى تعيشها المرحلة السياسية الحاضرة للقضية الإسلامية العراقية والتى نرى أهميَّة أن نتجنّب فيها الإثارات ذات ردود الفعل العاطفيَّة والنفسيَّة -أن نتناول هذا الموضوع بالقدر المحدود الواقعى الذى لا يكون على حساب المصالح الأساسية والمبادى ذات القيمة العملية فى حياتنا. وأداءً منى لبعض الحق والواجب والمسؤولية التى أشعر بها تجاه سيِّدنا وأستاذنا الشَّهيد الصَّدر [٥].

ولذلک، سوف نحاول -قدر الإمكان- تجنُّب المناطق الحسَّاسة، أو الأرقام ذات الطبيعة السَّلبية، أو التفسير بالنوايا، ونكتفى بذكر الشواهد التى تؤكِّد النظرية مع قطع النَّظر عن ملابساتها الخارجية أو علاقاتها ذات الطَّبيعة الشَّخصيَّة.

مسار البحث

وأعتقد أنّ البحث لا بدَّ من أن يأخذ مسارين من أجل توضيح الفكرة كما أشرت فى البداية.

أحدهما: المسار النَّظرى الذى يمكن تتبُّعه من خلال أعمال الشَّهيد الصَّدر الثَّقافيَّة والفكريَّة.

والآخر: المسار العملى الذى تمكن معرفته من خلال تتبُّع الحركة والمواقف السِّياسيَّة للشَّهيد الصَّدر ومراقبته.

ومن خلال المقارنة والموازنة بينهما، تصبح الفكرة أكثر وضوحاً، ويمكن أن نجد التفسير لبعض المواقف والأفكار التى قد تبدو – أحياناً- أنّها غير منسجمة أو متناسقة.

وقد كتبت هذه الأوراق -على الأكثر- اعتماداً على الذّاكرة والمشاهدات التى عشتها طوال المرحلة السابقة، وأرجو ألاّ تكون ذاكرتى قد خانتنى.

كما أرجو منه تعالى السَّداد والتَّوفيق والقبول، فهو ولىُّ التَّوفيق والسَّداد، وهو نعم المولى ونعم النَّصير.

أوّلاً ـ النظرية السياسية ـ المسار النظرى

نظريَّة الشُّورى والحزب

لقد بدأ الشَّهيد الصَّدر(رض) تصوُّره للنَّظرية السِّياسية انطلاقاً من عدة نقاط فقهيَّة وعمليَّة.

الأولى: إنّ الشَّهيد لم يتمّ لديه دليل واضح على صيغة الحكم الإسلامىّ بشكل خاص؛ حيث كتب، فى بداية تكوين التصوُّر السياسى، رسالة ناقش فيها جميع الأدلَّة التى يذكرها الفقهاء على الصيغة الخاصَّة للحكم الإسلامى، سواء روايات ولاية الفقيه المطلقة أم دليل الحسبة وحفظ النظام[٦] الذى كان يراه دليلاً قاصراً عن الوفاء بجميع متطلّبات الدَّولة والحكم الإسلامى فى العصر الحاضر. وأتذكّر فى هذا الصدد، أنه بعد أن دوّن هذه الرِّسالة قمت بطرحها على أحد الفقهاء المعروفين فى النجف الأشرف، وهو آية اللّه الشيخ حسين الحلّى، فأعجب بها، وإن لم يكن يتَّفق مع الشَّهيد الصَّدر فى نتائجه.

الثَّانية: الاستفادة من آية الشُّورى «وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم» الشُّورى/٣٨ للدلالة على إمكان إقامة الحكم الإسلامى على قاعدة الشُّورى باعتبار أنّ الحكم وإقامة الدَّولة يمثّل أمراً مهمّاً من أمور

المسلمين، ولا يمكن تجاهله فى مجتمعهم، لأنَّ التجاهل يؤدِّى إلى تهديد أصل الدِّين، بالإضافة إلى سيطرة الكفار وعقائدهم على المجتمع الإسلامى.

ولا بدَّ من الالتزام بحكم الأكثريَّة فى الشُّورى، لأنَّ الإجماع فى الأمور الاجتماعيَّة أمر نادر، وهذا يعنى أنّ إقامة الحكم على أساس الشُّورى يعنى الرجوع إلى الأكثريَّة وإلاّ تعطّلت آية الشورى ولم يكن لها مدلول عملى[٧].

الثَّالثة: إنّ الأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر والدَّعوة إلى الإسلام والدِّين من أهمِّ الواجبات الإسلاميَّة، ولمَّا لم تكن هناك طريقة محدَّدة وإطار سياسى عام مشخَّص لهذه الدَّعوة، كان ممكناً انتهاج كل أسلوب مؤثِّر فى هذا المجال يعطى للمسلمين القوَّة والقدرة على تحقيق هذا الهدف أو القيام بهذا الواجب الإسلامىّ.

وحينئذٍ يُمكن طرح أسلوب «التنظيم الحزبى» بوصفه أفضل طريقة تجريبيَّة توصَّل إليها الإنسان فى التحرُّك السياسى؛ حيث إنها الطريقة المتَّبعة والمعروفة الآن فى المجتمعات الإنسانيّة (الحضارة الغربية والشرقية) والتى أثبتت جدواها وتأثيرها من خلال التجربة.

كما أنّ هذه الطريقة هى التى يمكن أن تواجه هذا الأسلوب الجذّاب فى المجتمع الإنسانى الذى اعتمدته الأيديولوجيَّات والنظريَّات الحديثة الوضعية[٨].

الرَّابعة: إنّ للفقهاء، فى النَّظرية الإسلاميَّة، وفى التَّاريخ الإسلامى، دوراً متميّزاً. أمَّا على مستوى النَّظرية، فنجد ذلك واضحاً فى مجال استنباط الأحكام الشرعيَّة وفى القضاء الإسلامى. أمَّا على مستوى التَّاريخ الإسلامى فإنَّ الأمَّة ارتبطت بالفقهاء عمليَّاً وواقعياً، خصوصاً فى أوساط أتباع أهل

البيت(عليهم السلام)؛ إذ أصبحت تقدّسهم وتنقاد لهم وتنظر إليهم بوصفهم نوّاباً عن الإمام(عليه السلام) وحكّاماً للناس والشريعة. وهذه حقيقة عقدية وتاريخية لا يمكن تجاهلها فى العمل السياسى، ولا يمكن التفكيک عملياً بين هذا الواقع العقدى والتّحرّک السياسى حتى لو انتهينا إلى التفكيک بين المرجعيّة فى الفتوى والقيادة السياسية على المستوى النظرى، ولذا لا بدّ من منحهم هذا الدور فى التّصوّر النّظرى للتّحرّک السّياسى.

القيادة الواقعيّة والقيادة الواجهيّة

وعند التّركيب بين هذه المفردات الأربع، نجد أنّه يمكن تأسيس الحزب الإسلامى الذى يتبنّى الدّعوة إلى الإسلام وتنظيم جماعة المسلمين، ويدعو إلى إقامة الحكم الإسلامى على أساس الشّورى والديمقراطيّة التعدّدية ضمن الإطار والضّوابط الإسلاميّة العامّة، ويكون للفقهاء فى هذا الحزب والحكم الإسلامى دور المتخصّصين فى القضايا الإسلامية النظرية التى يمكن الرجوع إليهم فيها، شأنهم فى ذلک شأن ذوى الاختصاص الآخرين فى مختلف القضايا العلمية.

وتتم إدارة البلاد من المتخصّصين فى الأمور السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والماليّة... تحت إشراف الفقهاء الذين لا بدّ لهم من أن يمارسوا تخصّصهم من أجل ضمان سلامة المسيرة الإسلامية فى هذه المجالات، من دون أن يكون لهم دور خاص بما هم فقهاء فى القيادة والإدارة الإسلامية، هذا على مستوى النّظرية.

ولكن من الناحية العمليّة والواقعيّة، يمكن الاستفادة من الطّاقات الهائلة التى يملكها المراجع والحوزة العلمية والإمكانات الكبيرة فى التبليغ والتوعية وعلاقة التقديس من الأمّة لهؤلاء الفقهاء، ويتمّ ذلک عن طريق تحويل الواجهة القيادية فى الأمّة إلى العلماء، وعن طريق المزاوجة والتلفيق بين التنظيم الخاص والجماعة الواعية فى الحوزة والمرجعية الرشيدة، بحيث يتحوّل الحزب إلى قيادة واقعية تنظّم حركة الأمّة، والمرجعيّة إلى قيادة واجهية تمنح الفكر الإسلامى الأصالة

والقدسيۀ للتَّحرک الإسلامی فی أوساط الأمَّۀ، کما أنّها توظّف أکبر الطّاقات لخدمۀ هذا العمل الإسلامی.

وهذه النتائج التی توصَّل إلیها آیۀ اللّه الشَّهید الصَّدر تعنی، بطبیعۀ الحال، مشروعیَّۀ العمل الحزبی من خلال اختیار الأمَّۀ له، ککل أو کجماعۀ من الأمَّۀ، باعتبار دلالۀ آیۀ الشُّوری، بحیث تکون الأمَّۀ لها القیمومۀ والنَّظارۀ والاختیار بشأن العمل الحزبی من ناحیۀ. کما أنّه یمکن لها أن تختار تعدُّد الأحزاب والتشکیلات السیاسیَّۀ، أو اختیار أی منهج آخر للعمل تراه مناسباً لحرکتها وتطلّعاتها وأهدافها من ناحیۀ أخری؛ حیث إنَّ هذا التَّصوُّر للنَّظریۀ یعنی أنّ الشَّارع المقدّس لم یعیِّن أسلوب العمل السیاسی ومنهجه، وإنَّما ترکه للإنسان، ویفترض أنَّ منهج العمل الحزبی هو أفضل أسلوب توصَّل إلیه الإنسان فی العصر الحدیث، فعندما یتوصّل الإنسان، فی ضمن ظروف معیّنۀ، أو من خلال دراسۀ التاریخ الإنسانی، إلی منهج أفضل فلا بدَّ من أن یکون ذلک المنهج هو المختار.

وهذه النقطۀ کانت ولا تزال تشکِّل نقطۀ ضعف مهمَّۀ فی هذه النظریۀ؛ حیث تفترض أنّ الإسلام الذی عالج مختلف القضایا فی الکون والمجتمع قد ترک معالجۀ هذه النقطۀ المهمَّۀ فی حیاۀ الإنسان، وهی «منهج العمل السِّیاسی» فلم یحدِّد المنهج العام لها، وإنَّما ترکها نقطۀ فراغ یعالجها الإنسان حسب الظروف والتطوُّرات. مع أنّ التاریخ الذی یعرضه القرآن الکریم عن سیرۀ الأنبیاء وأعمالهم لا توجد فیه أی إشارۀ إلی منهجٍ مثل المنهج الحزبی، وإنَّما کان یتمثَّل فی منهج عام متشابه، وهو منهج النبوَّۀ والإمامۀ والبلاغ[۹].

رؤیۀ الإمام الحکیم (قده) للعمل السِّیاسی

ومن الجدیر بالذِّکر، أنّ رؤیۀ الإمام الحکیم (قده) -الذی کان یمثِّل «المرجعیَّۀ» فی ذلک العصر- للأمور ومسلکیَّته کانت تختلف، فی هذه المرحلۀ، عن رؤیۀ الشَّهید الصّدر ومتبنیَّاته العملیَّۀ، إلاّ

أنّ هذا الاختلاف بينهما لم تكن له آثار عمليَّة مهمَّة تنعكس على الواقع الخارجى فى هذه المرحلة، وإن انعكست آثاره بعد ذلک على الواقع العملى، والسَّبب فى ذلک يعود إلى عدَّة نقاط:

أ ـ إنّ معالم النَّظرية لم تكن واضحة بشكلها الكامل فى البداية، وإنَّما أخذت تتوضَّح تدريجيَّاً من خلال الممارسة الخارجيَّة.

ب -إنَّ طبيعة المرحلة كانت طبيعة عمليَّة عامَّة فى مواجهة التيَّارات الفكريَّة والسِّياسيَّة الكافرة أو المنحرفة، والقضايا فيها كانت مشتركة. كما أنّ التنظيم الخاص – فى ذلک الوقت‌ف لم يكن له وجود واضح ليكون له دور مهمٌّ فى مجرى الأحداث الواقعية، وكانت أفكاره وتشكيلاته سرّية، وكان يمرُّ بمرحلة التأسيس، ثم بالمرحلة الثقافية.

بالإضافة إلى أنّ أبناءه كانوا يرتبطون واقعيَّاً بمرجعيَّة الإمام الحكيم، بشكل عام، فى التقليد وفى التَّحرُّک الثقافى والسِّياسى العام.

ج ـ سعة الصَّدر والإخلاص والأخلاقية العالية التى يتمتّع بها كلٌّ من الإمام الحكيم والشَّهيد الصَّدر (رحمهما اللّه).

ويمكن أن نلخّص نقاط الاختلاف، فى هذا المجال، بين رؤية الإمام الحكيم والشَّهيد الصَّدر فى الأمور الآتية:

١ـ ولاية الفقيه؛ حيث كان الإمام الحكيم يرى الولاية للفقيه بمستوى معيَّن مستنداً إلى دليل «الحسبة» وبعض النُّصوص الأخرى فى بعض الموارد[١٠]وضرورة إقامة الحكم الإسلامى حفاظاً

على كرامة الدِّين وعزَّته وعقيدة المسلمين، وأنّ الفقيه يمثِّل القدر المتيقَّن الذى يتولَّى ذلک، وكان يمارس هذا الدَّور عمليَّاً فى حدود المجالات التى تنالها يده وقدرته.

٢ـ «المرجعيَّة الدِّينيَّة» هى الإطار الأفضل للعمل الإسلامى ونشاطاته، ولذا لم يتَّخذ الإمام الحكيم العمل المنظَّم الخاص قاعدة أساسيَّة للعمل السِّياسى، بل اتَّجه بشكل عام لتشجيع العمل العلمائى قاعدةً وأساساً، وإن كان يؤيِّد العمل الحزبى المنظَّم باعتباره مؤسَّسة ومفردة إسلامية يمكن أن يكون لها دور محدَّد فى خدمة الإسلام، وكان يتعامل مع هذه المفردة بتحفظ ملحوظ.

٣ـ إنّ الوسط الحوزوى والوكلاء وأمثالهم يشكّلون حلقة الوصل الطبيعية بين الأمَّة والقيادة الإسلامية المتمثِّلة بالفقيه الجامع للشَّرائط، وفى الوقت نفسه يمكن للأحزاب السِّياسيَّة والجمعيَّات ذات الأهداف المختلفة القيام بهذا الدور فى أوساط محدودة، كوسط طلاَّب الجامعات والموظَّفين وأمثالهم.

۴ـ إستقلاليَّة المرجعيَّة عن العمل المنظّم الخاص (العمل الحزبى) وأصالتها وضرورة بقائها على قدسيَّتها ونقائها، بعيداً عن الظُّنون أو الشكوک أو الأوهام التى قد تحيط بالعمل الحزبى.

ومن هنا نجد الإمام الحكيم يطلب من ولده السيِّد مهدى، وكذلک من الشَّهيد الصَّدر، الخروج من التنظيم[١١]، ويعلّل ذلک بأنَّهما مرتبطان به ولا يصحُّ أن يكونا مرتبطين بالتنظيم، الأمر الذى قد تكون له آثار سلبيَّة على المرجعيَّة نفسه.

۵ـ «السِّرِّية»؛ حيث كان الإمام الحكيم يرى أنّ القيادة لا يصحُّ أن تكون سريّة فى إطار الجماعة التى ترتبط بها، وأنَّ ذلک يؤدِّى إلى احتمال وقوع القيادة فى خطر الانحراف أو التأثير عليها من

الخارج من خلال ارتباطات مشبوهة أو فاسدة، وقد لخّص ذلک فی جواب أحد الاستفتاءات بقوله: «إذا كانت القيادة سرِّية فلا يمكن الانقياد إليها، لأنَّها إذا كانت ذكية يخاف منها وإذا لم تكن ذكية فيخاف عليها»، وهذا التَّصوُّر ينطلق من نقطة نظريَّة مبدئيَّة ترتبط بالرِّواية المشهورة المتواترة: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليَّة»؛ حيث يفهم من هذا الحديث أنّ «معرفة» المأمومين للإمام قضية أساسية فی النظرية الإسلامية، وذلک انطلاقاً من نقطة سياسية أدركها الإمام الحكيم من خلال تجربته ومعاناته السياسية ومراقبته للأحداث التی اجتاحت العالم الإسلامی، منذ حركة المشروطة فی إيران، وحركة الجهاد ضد الإنجليز فی العراق، وثورة العشرين والتَّطوُّرات السِّياسية الأخرى حتى سقوط الملكية؛ حيث إنَّ القيادة عندما تكون معروفة تكون تحت رقابة الجماعة، ويشكِّل ذلک ضمانة نسبيَّة كبيرة من الانحراف، أو أن تدرک الأمَّة ذلک الانحراف بسرعة عندما تكون تفاصيل الحركة تحت الأضواء.

وقد انتهى الشَّهيد الصَّدر (قده)، بعد ذلک، إلى الالتقاء مع رؤية الإمام الحكيم، كما سوف يتَّضح ذلک نظريّاً وعمليَّ.

وهذا الاختلاف فی الرؤية أدَّى، بعد ذلک، إلى بروز حالة الانفصال النِّسبی تدريجياً فی التحرُّک السياسی بين موقف المرجعية والكادر الإسلامی الذی تربَّى فی أحضان التنظيم الحزبی والذی كان يرتبط بالمرجعيَّة فی تحرّكها العام كما سوف نلاحظ فی المرحلة التالية.

وأدَّى، أيضاً، إلى حصول ضعف فی الجهاز العام للمرجعيَّة التی كانت تعتمد، فی بعض الأحيان، على هذا الكادر فی تحرُّكها العام، وذلک من خلال تداخل فی الجهاز كانت له آثار سلبية على التَّحرُّک العام، وقد أدرک الشَّهيد الصَّدر (رض) كل ذلک فی ما بعد، كما سوف يتَّضِح.

الشَّکُّ فی الشُّورى والحزب

وفى تطوُّر آخر أصاب الشَّهيد الصَّدر (رض) الشَّک فى دلالة آية الشُّورى على الحكم الإسلامى من خلال شبهة كنت قد أثرتها حول آية الشورى فى بداية تكوّن النَّظريَّة، ولكنه أجاب عنها فى حينه، ثم بدت له صحَّتها بعد ذلک. وقد دوّن هذه الملاحظات ضمن مجموعة من المراسلات[١٢].

وهذا الشَّک فى دلالة آية الشورى انتهى به إلى الشَّک فى صحَّة العمل الحزبى بمعناه الواسع الذى لا معنى له- فى نظر الشَّهيد الصَّدر آنذاک -إلاّ إذا كان يتضمَّن تصوُّراً كاملاً عن نظريَّة الحكم الإسلامى وطريقة ممارسته، فإذا لم تكن النّظرية حول الحكم الإسلامى وإطاره ومؤسَّساته واضحة، فكيف يمكن إيجاد تنظيم يسعى إلى هذا الهدف، من دون أن يكون الهدف نفسه واضح المعالم؟

وعلى هذا الأساس انسحب الشَّهيد الصَّدر من تنظيم حزب الدَّعوة[١٣]بعد أن كان ـ يمارس فيه دور القيادة الفكريَّة والإشراف العام.

ولكنه كان، فى الوقت نفسه، يشعر بضرورة العمل السياسى الإسلامى المنظَّم وأهمّيته. ولذا بقى يؤيِّد التَّحرک السياسى (الخاص) بمستوى من المستويات، وسمح للحزب -من أجل أن يحلَّ الإشكال الشرعى له -أن يستند فى شرعيته إلى فتوى بعض الفقهاء، أمثال خاله الشيخ مرتضى آل ياسين أو غيره.

كما أنّه، فى الوقت نفسه، نقل جهوده بشكل عام إلى العمل المرجعى من خلال مرجعيَّة الإمام الحكيم(ره)، ومن خلال التوجُّه الأساسى لبناء الحوزة العلميَّة الواعية -وتربية الطَّلبة والمبلّغين- وتنظيم هذه الحوزة الذى تجسَّد فى أحد مفرداته بتبنِّى الشَّهيد الصَّدر لـ «مدرسة العلوم الإسلامية» فى النَّجف الأشرف التى كان قد أسَّسها الإمام الحكيم (ره).

نظريَّة ولاية الفقيه والمرجعيَّة

وبعد مدَّة من الزَّمن، توصّل الشَّهيد الصَّدر (رض) إلى توثيق التوقيع المعروف عن الإمام الحجَّة (عج)، وهو: «أمَّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنَّهم حجَّتى عليكم وأنا حجَّة اللَّه»، كما أنَّه استفاد من التوقيع المذكور للدَّلالة على ولاية الفقيه بعد أن كان الفقهاء يستفيدون منه للدَّلالة على صحَّة تقليد المجتهد وجوازه فى الفتاوى الشَّرعيَّة فقط؛ حيث كانوا يفسِّرون الرجوع فيه بخصوص الرجوع إليهم بالفتوى. أمَّا الشَّهيد ففهم منه الرُّجوع إليهم فى قضايا الولاية أيضاً بقرينة «الحوادث الواقعة».

وكان الالتزام بولاية الفقيه فقهيَّاً يمثِّل تطوُّراً نوعيَّاً فى النَّظريَّة السِّياسية للشَّهيد الصَّدر(قده)، ومن هنا نجده يبدأ بإعادة ترتيب المفردات السياسيَّة نظريَّاً فى الأمَّة وفى واقع العمل المرجعى، وينتهى بهذا الترتيب إلى النتائج الآتية:

أوَّلاً: أطروحة المرجعيَّة الموضوعيَّة، وهى الأطروحة التى يكوّن الشهيد فيها تصوّره عن التركيب الذَّاتى للقيادة وأجهزتها ودورها فى الأمَّة؛ حيث يرى أنّ المرجعية القائمة فى المجتمع الإسلامى، فى هذه المرحلة، لها الدور القيادى، وهى مرجعيَّة فى الفتوى وفى الأمور السياسيَّة والاجتماعيَّة المرتبطة بالولاية.

والمرجعيَّة الدِّينية، وإن كانت من النَّاحية الواقعيَّة والعمليَّة، تؤدِّى هذا الدور إلى حدٍّ كبير -فعلاً- فى حركة الأمَّة وتحفظها من الانحراف وتقوم بقيادتها فى المواقف المهمَّة، إلاّ أنّ هذه القيادة لا بدَّ لها من أن تتكامل ذاتياً، من أجل أن تؤدِّى دورها بشكل أفضل ومناسب مع متطلَّبات ظروف ما بعد سقوط الدَّولة الإسلاميَّة بعد الحرب العالميَّة الأولى وطبيعة تطوُّر العلاقات والاتِّصالات بين أطراف القاعدة الشعبيَّة والإسلاميَّة.

وهذا التكامل الذَّاتى يتحقَّق من خلال تحوُّلها من الحالة الذاتيَّة التى تعتمد فيها على:

(أ) المرجع بوصفه إنساناً له خصوصيَّاته العلميَّة والأخلاقيَّة وأوضاعه وعلاقاته الاجتماعيَّة التى تنمو معه طبيعيَّاً.(ب) جهازه الخاص (الحاشية).

(ج) الوكلاء والمعتمدون الخاصُّون، إضافةً إلى الحالة الموضوعية التى تعتمد على المرجعيَّة بوصفها موقعاً يتَّخذ شكل مؤسَّسة تتحرَّک فى الأمَّة، وتمتلک جهازاً له ديمومته وشموليَّته واستمراريَّته ومقدّماته المبدئيَّة والنَّظرية وقدرته القياديَّة.

وكان يعتقد أنّ هذا التحوّل يحتاج إلى توافر شروط موضوعيَّة مناسبة، وإلى مدّة زمنيَّة، وإلى سعى متواصل بهذا الاتِّجاه، وأنّ المرحلة التى تعيشها المرجعية الآن فأى ما قبل قيام الدَّولة الإسلاميَّة- وظروفها القائمة تتناسب مع المرجعية الذَّاتية أكثر من المرجعية الموضوعية ما لم تحدث تطوُّرات مهمَّة فى وضع المجتمع والمرجعيَّة وتبقى المرجعيَّة (الموضوعية) تمثِّل هدفاً لحركة المرجعية فى طريق التكامل[١۴].

ثانياً: إنّ المرجعيَّة الموضوعيَّة ليست مجرَّد المرجع والقائد، أو جهازه الخاص (الحاشية)، بل المرجعية الموضوعية تعنى شيئاً أوسع من ذلک، فهى مؤسَّسة واسعة تتكوَّن بالإضافة إلى المرجع الذى يمثِّل موقع القيادة فيها وجهازه الخاص الذى يمثِّل الحاشية المتمثِّلة بالمستشارين، وكذلک أيضاً الجهاز الإدارى التنفيذى لمسؤوليَّاتها ونشاطاتها، والذى يجب أن تكون له الديمومة والاستمرار من خلال ارتباطه بالمؤسَّسة -لا بشخص المرجع والقائد- من جهاز الحوزة والوكلاء (العلماء) والمبلِّغين وامتداداتها، ولا بدّ من أن ترتبط الأمَّة بمجموعها مع المرجعيَّة من خلال الاتِّصال المباشر بهذه المرجعيَّة وأجهزته.

ثالثاً: لا بدَّ من أن يكون الإطار العام للتَّحرُّک سياسياً فی الأمَّة هو الإطار العام لجهاز المرجعية الذی يبدأ فی تكوينه (ذاتياً) ليتحوَّل إلی مؤسَّسة ذات طابع (موضوعی) حسب ما أشير إليه فی النقطة الأولی والثانية إذا تحقَّقت شروطه وظروفه ومقوِّماته، ومن هنا لا بدَّ من تطوير الحوزة العلمية والوكلاء والمبلِّغين... إلی غير ذلک من أجهزة المرجعية والاهتمام بالمساجد والحسينيات والمدارس العلمية والمؤسَّسات الإسلامية لتصبح قادرة علی استيعاب هذا التحرُّک.

رابعاً: إنّ هذا الإطار السياسی ليس شيئاً جديداً فی تاريخ التحرُّک السياسی البشری، بل هو امتداد لحركة الأنبياء جميعهم ولحركة الأئمَّة(عليهم السلام)، وإنَّ هذا يمثِّل النظرية الإسلامية فی خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، وإنّ المرجع يمثل امتداداً للأنبياء والأئمَّة[١٥].

خامساً: إنّ الحركة الإسلامية تمثِّل مفردة ومؤسَّسة فی السَّاحة الإسلامية شأنها شأن بقيَّة المفردات والمؤسَّسات المؤثِّرة والمتحرِّكة فی الأمَّة، والعلاقة بين القيادة (المرجعية) والحركة الإسلامية (التنظيم الخاص) هی علاقة قيمومة من «القيادة» علی «الحركة الإسلامية» مع واجب الإسناد والدَّعم من المرجعيَّة للحركة الإسلاميَّة ضمن الدعم أو الإسناد لمجمل العمل الإسلامی فی الساحة.

ولا بدَّ لهذه القيادة من أن تمارس تجاهها هذا الدور المزدوج.

غاية الأمر أنّ هذه المؤسَّسة (الحركة الإسلامية) لها دور خاص، وهو دور الكادر الوسطی الذی له خبرة نسبيَّة وتجربة. فهی حالة متطوِّرة فی حركة عموم الأمَّة باتِّجاه الإسلام وأهدافه وإقامة الحكم

الإسلامى. ولا بدَّ لها من أن تتحرَّک ضمن الإطار العام الذى تتحرَّک فيه المرجعيَّة وتكون تابعة لها لتقوم بدور خاص أو مهمَّة خاصَّة حسب متطلبات الظُّروف.

كما أنّ الحركة الإسلاميَّة (التنظيم الخاص) يجب[١۶] ألاَّ تقتصر على صيغة واحدة شمولية تستوعب كل الأمَّة أو جلّها، بل يمكن أن تكون ضمن صيغ ومؤسَّسات (متعدِّدة) ومتكثِّرة فى وجودها وأهدافها العملية أو المرحلية أو المحدودة لتصبَّ جميعها فى الهدف الكبير الأصيل والعام الذى تحمل همّه القيادة الإسلاميَّة.

سادساً: إنّ الأمَّة لها دور الرَّقابة على حركة المرجعيَّة، كما أنّ لها دور انتخاب المرجع من خلال الوسائل الشرعية، أى لها دور اختياره مرجعاً لها من خلال اكتشاف الخصائص الموضوعيَّة التى تؤهّله للمرجعية بالطرق التى ذكرها الفقهاء فى رسائلهم العمليَّة، إمَّا بشكل طبيعى تدريجى كما هو المتعارف عليه فى الانتخاب من خلال التقليد والرجوع إليه، أو من خلال الاقتراع فى الصَّناديق الخاصَّة عندما تملک إرادتها فى الاختيار.

وبهذه الطريقة أصبحت النَّظرية السِّياسية، لدى الشَّهيد الصَّدر، واضحة المعالم؛ حيث أصبح المرجع (الولىّ الفقيه) يمثِّل «المحور» الأساس فى هذا التحرُّک وفى العلاقات السِّياسية. ذلک لأنه يقوم بقيادة التحرُّک من «جهة»، ويمارس عملية الإشراف الفكرى والسياسى من «جهة أخرى»، ويمثِّل محور الولاء السياسى للأمَّة بكل قطاعاتها من جهة ثالثة، وأجهزته هى التى تتحرَّک فى الأمَّة من خلال النشاطات العامة والخاصة فيه.

النشاطات العامَّة: «نشاط المساجد والحسينيات والمدارس..».

النشاطات الخاصَّة: «نشاط تربية العلماء والمبلّغين والمتفقّهين والحواريّين والصَّفوة، بناء التنظيمات الإسلامية ذات الأهداف المحدودة أو المرحلية: الأحزاب والجمعيات والحركات..

ومن الملاحظ، أيضاً، فى هذا التَّصوُّر النَّظرى للسَّيد الشَّهيد(رض) أنّه حاول أن يوفق بين ولاية الفقيه ونظريَّة الشورى من خلال:

١ـ انتخاب الأمَّة للفقيه الولى والرَّقابة العامَّة التى تمارسها تجاه الحركة السياسية له.

٢ـ المستشارون الذين لا بدَّ من أن يرجع إليهم الفقيه فى إطار المرجعيَّة الذاتيَّة وحتى المرجعيَّة الموضوعية.

٣ـ المؤسَّسات المرجعيَّة التى لا بدَّ من أن يتم انتخابها أو تأسيسها من قبل المرجع أجهزةً للتَّحرُّک فى الأمَّة والتى يتم بناؤها على أساس الانتخاب الطَّبيعى أو التَّشريعى[١٧].

ثانياً ـ المسار العملى للنظرية السياسية

إذا أردنا أن نؤرِّخ للمسار العملى للنَّظرية علينا أن نؤرِّخ للمعالم الرئيسيَّة فى التَّحرُّک السِّياسى للشَّهيد الصَّدر طوال مرحلة من حياته تمتدُّ حوالى أربعة وعشرين عاماً، وهذا يحتاج إلى تفصيل كثير، ولكن نودُّ هنا أن نرسم الخطوط العامَّة لهذا التَّحرُّک خلال هذه المدَّة بالشَّكل الذى يوضح الجانب النَّظرى. وسوف أشير إلى ذلک ضمن تقسيم هذا التَّحرُّک إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: الحزب، وجماعة العلماء، والمرجعيَّة الرشيدة

لقد كانت هناک، فی المرحلة الأولی، مفردات ثلاث مهمّة فی تصوُّر الشَّهید الصَّدر عملیّاً لا بدَّ لها من أن تتجانس وتنسجم وتتحرَّک باستمرار فی السَّاحة السِّیاسیَّة.

الحزب الإسلامی:

الأولی: الحزب الإسلامی الذی یعتمد الفکر الإسلامی الأصیل ویتحمَّل مسؤولیَّات التَّوعیة فی مختلف المجالات، وهی:

أ ـ مجال الأمَّة والجماهیر؛ حیث یمکن أن یکون للحزب دور خاص فی الأوساط المثقَّفة من الطَّلبة الجامعیین وأساتذتهم والأوساط التعلیمیة وموظَّفی الدولة... باعتبار أنّ هذه الأوساط کانت تعیش فی عزلة نسبیة عن نشاط المرجعیَّة والحوزة العلمیَّة للحواجز المصطنعة -التی رسّخها الاستعمار الثَّقافی والسِّیاسی- بین الحوزات العلمیَّة وهذه الأوساط، بحیث أصبح من العسیر بناء الجسور والعلاقات المباشرة بین الحوزة وهذه الأوساط.

بالإضافة إلی أنّ فکرة التنظیم السیاسی (الحزب) کانت فکرة رائجة لها تأثیر نفسی؛ حیث کانت تستهوی هذه الأوساط بسبب تماسِّها المستمرّ مع التنظیمات السِّیاسیة الأخری الموجودة فی السَّاحة السِّیاسیة، وتعدّ الوسیلة الطبیعیة للوصول إلی الحکم فی تصوُّر الحضارة الأوروبیة ذات التأثیر الکبیر فی أوساطنا السِّیاسیة.

ب – مجال الحوزة العلمیة؛ وذلک بتربیة جیل من طلبة العلوم الدِّینیة الواعین والمنظَّمین والذین یمکن أن یشکِّلوا قاعدة قویَّة یعتمد علیها الحزب فی هذا الوسط ذی الأهمیة الخاصة والمتمیّز إسلامیاً واجتماعیاً. وفی الوقت نفسه یقومون بدورهم فی توعیة الأمَّة والجماهیر وتوعیة الوسط العام للحوزة، کما یمکن أن تستند إلی هذه القاعدة المرجعیَّة الرشیدة فی تحرُّکها العام.

ج ـ مجال أجهزة المرجعيَّة الدِّينية (الجهاز الخاص للمرجعية (الحاشية) أو الجهاز العام للمرجعية المتمثِّل بالوكلاء والمبلِّغين والمؤسَّسات الأخرى للمرجعية) وحتى إقناع المرجعيَّة الدِّينية نفسها بضرورة الحزب ودوره وأهمّيته واعتماده وتبنِّيه، أو تبنِّى أعماله ونشاطاته، أو السَّماح له بالتواجد ضمن هذه النَّشاطات على الأقل.

ومن خلال هذه النَّظرة سعى الشَّهيد الصَّدر، بشكل مباشر وغير مباشر، إلى دفع الحزب فى هذه الاتجاهات المذكورة، من خلال التحرُّك فى الأوساط المثقَّفة فى الأمَّة، وكذلك التَّحرُّك من خلال عناصر مختارة ومتميِّزة فى الحوزة والاهتمام بقبول الطلبة فى الحوزة، أو الحثّ على انتمائهم إليها وكسبهم إلى جانب التنظيم الخاص وربطهم به. وتبنَّى شخصياً – فى بعض الأدوار الأولى- إدارة بعض الحلقات الخاصة أو توجيهها وحتى مخاطبة بعض الأشخاص للانتماء إلى التَّنظيم.

جماعة العلماء:

الثانية: جماعة العلماء، وكانت الفكرة العمليَّة لدى الشَّهيد الصَّدر حولها هى أنّ إيجاد تنظيم يضمُّ نخبة من العلماء الواعين الذين لديهم استعداد لممارسة العمل السِّياسى، ولو بالحدِّ الأدنى، أمر مهم، وعندها يكون التَّحرُّك، من خلالها، ذا طابع جماعى ويمكن أن يحقِّق الأهداف الآتية:

أ ـ الواجهة السِّياسية ذات الصِّيغة الشَّرعية فى نظر الأمَّة، وذات العمق التَّاريخى المتجذِّر والتى يمكن -تحت غطائها- أن يتمَّ التحرُّك المرحلى فى بناء الحزب والقيام بالنشاطات الفكرية والثقافية... فى المقاطع المختلفة.

ب – دفع الأمَّة باتِّجاه العمل السِّياسى وإضفاء الشَّرعيَّة عليه، وكسر الحاجز النَّفسى الذى بناه الاستعمار فى محاولته لفصل الدِّين عن السِّياسة، خصوصاً فى أوساط الحوزة العلمية؛ حيث كانت تعيش تحت تأثير هذا الاتجاه من ناحية، وتحت تأثير ما خلّفته إحباطات العمل السِّياسى للحوزة العلميَّة من آثار ونتائج فى السابق من ناحيةٍ ثانية.

ج ـ تطوير العمل السِّياسى فى وسط الحوزة العلمية بعد أن عمل الاستعمار على عزلها وتحجيم دورها، بل منعها فى بعض الأحيان بالقوَّة عن ممارسة هذا الدَّور، بحيث أصبح العمل السِّياسى كأنّه من الأمور الغريبة والمرفوضة فى بعض أوساط الحوزة العلمية. ومن ثمّ يمكن لهذه الجماعة أن يكون لها دور مهمٌّ فى إسناد دور المرجعيَّة الدِّينية الرَّشيدة ودعمه فى التصدِّى للعمل السياسى.

د ـ مواجهة التيَّارات الثقافية والسِّياسية ذات البعد الإلحادى، وكذلك الانحرافات الأخلاقيَّة والسلوكيَّة فى الأمَّة التى كانت تحتاج إلى تصدٍّ واسع وفعّال من قبل الحوزة العلميَّة.

وقد كانت المرجعيَّة الدينية الرَّشيدة حينذاك، المتمثِّلة بالإمام الحكيم، تلتقى فى تحرُّكها السِّياسى وتصوُّراتها العمليَّة مع الأهداف الثلاثة الأخيرة من وراء تأسيس جماعة العلماء، بالإضافة إلى أهداف أخرى، الأمر الذى أدَّى إلى أن يقوم الإمام الحكيم (قده) بالمساهمة مع بقيَّة العلماء المنضوين تحت هذا التشكيل بتأسيس جماعة العلماء ودعمها التى كانت تضمُّ كبار علماء النجف الأشرف من الطبقة الثانية والثالثة بعد المراجع الكبار[١٨]، والذين كانوا ينطلقون فى نشاطاتهم وتصوُّراتهم من أهداف

المرجعيَّة. ويمكن تلخيص الأهداف الأخرى المرحلية -لتأسيس جماعة العلماء من وجهة نظر المرجعية وفى إطارها- بالأهداف التالية:

أ ـ المطالبة بالحقوق المهضومة للمسلمين بشكل عام والشِّيعة بشكل خاص، سواء على المستوى المدنى أم الدينى، وطرح الفكر السِّياسى الإسلامى على الأمَّة.

ب – اتِّخاذ المواقف السِّياسيَّة تجاه الأحداث التى تواجهها الأمَّة وتطوراتها. وإيجاد تيَّار سياسى إسلامى فى مقابل التيَّارات الأخرى الوضعيَّة التى غزت العراق وبلاد المسلمين، مع الاهتمام بطرح هذا التيَّار والفكر من خلال العمل الجماعى للحوزة العلميَّة.

ج ـ محاولة الجمع بين جميع أطراف الحوزة العلمية المتمثِّلة بالمراجع العظام فى صف واحد تجاه الأحداث والمواقف؛ حيث كانت هذه الجماعة تمثِّل فى انتماءاتها الحوزوية مختلف الأطراف المهمَّة فيها، بالرغم من أنّ المرجع الأعلى آنذاک هو الإمام الحكيم(رض) الذى برزت المرجعية فيه بشكل واضح بعد وفاة آية اللّه البروجردى (رض) سنة ۱۳۸۰ه.

وعلى هذا الأساس أمكن أن تتكوَّن هذه الجماعة فى النَّجف الأشرف التى كانت تسندها المرجعيَّة الدِّينية، وتلقى، فى الوقت نفسه، تبنّياً غير محدود من الشَّهيد الصَّدر (رض) الذى كان حينذاک شاباً معروفاً بالفضل فى أوساط الحوزة العلمية، ولكن لا يسمح له عمره بالانضمام إلى قائمة أسماء الجماعة.

ولكنَّه، مع ذلک، كتب جميع بياناتها السَّبعة، كما كان يكتب باسمها «كلمتنا» فی مجلة الأضواء على الغالب.

وكان يفكِّر، فی البداية، أن ينشر باسمها كتاب «فلسفتنا» إلاّ أنَّه عدل عن هذه الفكرة بعد ذلک لما أثاره بعض الأشخاص ضدَّه من «تهمة» أنه يرغب فی استخدام اسم الجماعة للتَّستُّر على تحرُّكه السياسی الواقعی، وهو التَّحرُّک الحزبی.

كما أنَّه انقطع عن كتابة «كلمتنا» بعد ذلک باسمها، بعد أن أثير هذا الموضوع ضدَّه أيضاً[١٩].

وكانت لعلاقته الخاصَّة برئيس هذه الجماعة، خاله آية اللَّه الشيخ مرتضى آل ياسين، وببعض أعضائها من أرحامه وأصدقائه، أمثال ابن عمِّه السَّيد محمَّد صادق الصدر وأخيه السيِّد إسماعيل الصدر وآية اللَّه السيِّد محمَّد تقی بحر العلوم وحجَّة الإسلام والمسلمين السيِّد باقر الشخص وغيرهم الأثر الكبير فی قدرته على التأثير فی مسار هذه الجماعة[٢٠].

كما كان لوجود حجَّة الإسلام السيِّد مهدی الحكيم وأخيه السيِّد محمَّد باقر الحكيم (كاتب هذه السُّطور) فی جهاز مرجعيَّة الإمام الحكيم الأثر المهمّ فی التَّنسيق بين أهداف المرجعيَّة من تشكيل جماعة العلماء وفكرتها والأهداف الخاصة للحزب الذی كان حينذاک فی بداية وجوده، ولم يكن قادراً على ممارسة التأثير إلاّ من خلال هذه العلاقات الطبيعية التی كانت موجودة قبل وجود الحزب نفسه[٢١].

وبهذا الشَّكل، تمكَّنت هذه الجماعة من أن تحظى بتأييد المرجع العام وجميع المراجع الآخرين كما تحظى فى الوقت نفسه بقبول شباب الحوزة الذى يتطلَّع للعمل المنظم الخاص؛ لأنها كانت تمثِّل حاجة فعلية وضرورية للمرجعية وللحوزة العلمية من جهة وللتنظيم السياسى الخاص من جهة أخرى. كما أنّ أعضاءها كانوا يمثِّلون الطَّبقة الثانية فى الحوزة العلمية الذين يأتون بعد المراجع العظام.

وبهذا أصبحت جماعة العلماء، فى النَّجف الأشرف، أنموذجاً يقتدى به فى ساحة العمل السِّياسى فى وسط المرجعية الرَّشيدة والحوزات العلمية والتَّنظيم الخاص[٢٢].

وعندما توقَّفت جماعة العلماء فى النَّجف الأشرف، أو تقلَّص نشاطها لأسباب لا مجال لتفصيلها الآن[٢٣]، نجد انبثاق فكرة جماعة علماء فى بغداد والكاظميَّة لتحقيق أهداف المرجعيَّة نفسها، بعد أن تولّت المرجعيَّة مباشرة قيادة العمل السياسى، وأصبحت قادرة على تجسيد وحدة الحوزة العلمية باعتبارها المرجعيَّة العليا. وقد تميّزت جماعة فى بغداد والكاظمية[٢٤] بنشاطها فى الستِّينات وكانت تضمُّ فى أعضائها كبار علماء بغداد والكاظمية، وكانت غالبيّتهم السَّاحقة من المستقلِّين والعاملين فى إطار المرجعية وحدها، بالإضافة إلى بعض العلماء المعدودين الذين يرتبطون بالتَّنظيم.

المرجعيَّة الرشيدة:

الثالثة: المرجعيَّة الرشيدة؛ حيث اهتمّ الشَّهيد الصَّدر (رض)، بالإضافة إلى المفردتين السابقتين، بمفردة المرجعيَّة الرَّشيدة (الواعية) التى كان يتصوَّر دورها الأساس فى هذه المرحلة العملية ضمن النقاط والأهداف التى ذكرناها لجماعة العلماء مضافاً إلى ذلك:

أ ـ المرجعيۀ هی التی تملک القدرۀ الواقعيۀ فی الأوساط الدينيۀ:

أوَّلاً: من خلال الارتباط الدِّينی بها فی الأحكام الشرعيۀ (التقليد) الذی يخلق ارتباطاً روحيَّاً مهمَّاً بين الأمَّۀ والمرجع.

وثانياً: من خلال الإمكانات المادِّيۀ التی تملكها المرجعيۀ (الحقوق الشرعيۀ) وكذلک أجهزتها الدِّينيۀ (الوكلاء والمؤسَّسات والحوزات العلميۀ والمدارس) ذات التَّاريخ الطَّويل.

ب – إنّ المرجعيَّۀ تمثِّل الواجهۀ العليا الدِّينيۀ والبارزۀ فی العمل الإسلامی والشَّرعی فی مجتمع أتباع أهل البيت(عليهم السلام)، ولها قدسيَّتها الخاصَّۀ دينياً واجتماعياً، ولا يمكن التَّعويض عنها بأیِّ مفردۀ أخرى سواء كانت «جماعۀ العلماء» أو «الحزب»، أم غير ذلک من المؤسَّسات فی هذا المجال.

وعلى هذا الأساس، كان الشَّهيد الصَّدر (رض) يرى أنَّه لا بدَّ للعمل السياسی والتَّنظيم (الخاص) من أن يكون مدعوماً ومؤيَّداً من المرجعيَّۀ الدينيۀ ومنسجماً معها، وإلاّ لواجه الفشل، أو التناقض معها على أقلِّ تقدير.

وهذا يفرض، فی الوقت نفسه، أن تكون المرجعيۀ واعيۀ للأوضاع العامَّۀ الاجتماعيَّۀ والسِّياسيَّۀ، ورشيدۀ فی خبرتها ومعرفتها ودرايتها ومتصدِّيۀ للعمل السياسی والاجتماعی، حتى يمكنها أن تستوعب هذا النَّوع من العمل السياسی، وترضى أن تصبح غطاءً شرعيَّاً له وتضع إمكاناتها فی خدمۀ أهدافه العامَّۀ.

ومن هنا يمكن أن نفهم ارتباط الشَّهيد الصَّدر، فى بدايۀ تحرُّكه السِّياسى، عمليّاً بمرجعيَّۀ الإمام الحكيم(رض)، مع أنّ موقعه «الجغرافى» فى الحوزۀ العلميۀ لم يكن إلى جانب مرجعيَّۀ الإمام الحكيم فى تلك الآونۀ على الأقل. حيث كان ارتباطه العلمى بآيۀ اللّه العظمى السَّيد الخوئى وارتباطه المرجعى من خلال حوزۀ خاله المرحوم آيۀ اللّه العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين التى ارتبط بعضها بعده فبشكل عامف بآيۀ اللّه العظمى السيد عبد الهادى الشيرازى وآيۀ اللّه العظمى السيد البروجردى، وبقى بعضها الآخر مستقلاً فى انتمائه المرجعى، وارتبط بعض عناصرها بالإمام الحكيم.

الشهيد الصدر (رض) ومرجعيَّۀ الإمام الحكيم (قده)

وهذا الارتباط بمرجعيَّۀ الإمام الحكيم(رض) كان على أساس إدراک الشَّهيد الصَّدر (قده) الخصائص الذّاتيۀ والموضوعيۀ التى تتميّز بها مرجعيَّۀ الإمام الحكيم(رض) فى تلك الآونۀ، وهى: الوعى السياسى، والانفتاح على الحوزۀ وأوساط الأمَّۀ، والقدرۀ على الاستيعاب، والتصدِّى للعمل السِّياسى والاجتماعى، والشُّعور بالمسؤوليَّۀ تجاه الأوضاع الفاسدۀ وتغييرها، والفهم للظُّروف السِّياسيۀ وملابساتها فى العراق، والقاعدۀ الجماهيريۀ الواسعۀ التى كانت تتمتَّع بها، والأخلاقيۀ المتميِّزۀ فى الشجاعۀ والصبر والتسامح، والانعطاف نحو الطَّبقۀ المحرومۀ والمستضعفۀ فى الحوزۀ العلميۀ التى يمكن أن تشكِّل قاعدۀ التَّحرک السياسى الجديد. والتَّحرُّر من ضغوط تاريخ السكوت والعزلۀ أو المهادنۀ، والاعتزاز بالكرامۀ المرجعيَّۀ والتَّصوُّر الواضح لتطلُّعات المرجعيَّۀ الواسعۀ...

وبهذا الشكل، تحوّل الشَّهيد الصَّدر إلى موقع العمل مع مرجعيَّۀ الإمام الحكيم، ولكن بالمفهوم الصَّحيح للعمل الذى يعنى تحمُّل مسؤوليَّات المرجعيَّۀ وهمومها والتَّخطيط لها وإبداء النُّصح والمشورۀ والاستعداد للتَّضحيۀ من أجل أهدافها الكبيرۀ، بعيداً عن المصالح والمنافع الذاتيۀ، ودعمها وتأييدها فى المفاصل الرئيسيۀ لحركتها وقضاياه.

وفى الوقت نفسه، فتحت مرجعيَّة الإمام الحكيم الأبواب أمام العمل السِّياسى الخاص والعام، بمستوى عالٍ فاق تصوُّرات «النُّخبة» من الإسلاميين، فضلاً عن الجمهور، وتمكَّنت من أن تهدم الحواجز أمام العمل الإسلامى، وحتى القوية منها، فى مدَّة قياسيَّة سواء فى مستويات التصدّى وأساليبه، أم فى مضمونه السياسى، أم فى العلاقات السِّياسية الرَّسمية والشَّعبية.

فى الوقت الذى يمتنع الإمام الحكيم فيه عن استقبال الملك فقبل تأسيس العمل المنظَّم الخاص- وعبد الكريم قاسم -بعده- يقوم الإمام الحكيم باستقبال قادة «الحزب الإسلامى» الذى أسَّسته مجموعة من شباب أبناء «السنَّة»، وامتنعت حكومة «عبد الكريم قاسم» من إجازته بعد أن أجازت مجموعة من الأحزاب السياسية، ومنها الحزب الشيوعى مثلاً، ويقدِّم الإمام الحكيم توجيهاته إلى قادة الحزب ويدعم فكرة هذا النَّوع من الأعمال.

وفى الوقت الذى تتعرَّض فيه «جماعة العلماء» إلى الأذى بمستوى الاعتداء على بعض أشخاصها والتهديد بقتل «وسحل» الأشخاص الآخرين بالحبال، وتصاب بعض أوساط العلماء والحوزة والأمَّة بالخوف[٢٥]، يقف السَّيد الحكيم ليغطِّى تحرُّك الجماعة بقوَّة ويصدر فتواه بصلاحيتها ودعمها وسلامة أهدافها، بحيث يفرض هذا الموقف بشكل طبيعى على بقية المراجع فيقومون بإسناده.

ويواجه التَّهديد من قبل السُّلطة والعناصر الفوضوية الملحدة بصلابة ومن دون تنازل. وعندما تتوقَّف «جماعة العلماء» عن التحرُّك، يأخذ الإمام الحكيم زمام المبادرة ويتصدَّى بشكل مباشر لقيادة المسيرة السياسية، وهو المرجع العام الذى تضغط عليه الظُّروف ومخلَّفات الماضى حينذاك ليكون محافظاً ومحتاطاً، خصوصاً مع وجود المراجع الآخرين فى النجف وقم الذين كانوا يلتزمون الخط المحافظ والمحتاط.

وفى الوقت الذى يتعرَّض فيه بعض علماء السنَّة وبعض جماهيرهم إلى الاضطهاد والامتهان بسبب ارتباطهم الجغرافى والعاطفى مع بعض العناصر القوميۀ المعارضۀ للحكم القاسمى، يقوم الإمام الحكيم بدعوۀ بعض هؤلاء العلماء إلى النَّجف لحضور الاحتفالات فيها، ويرسل وفداً لحضور الاحتفال الذى أقامه هؤلاء العلماء فى جامع أبى حنيفۀ فى بغداد وغيرها، بالرغم من موقف هؤلاء العلماء السلبى من قضايا المسلمين الشيعۀ (بشكل خاص) فى العهود السابقۀ، ووجود الحساسيات المذهبيَّۀ السَّلبيۀ فى بعض الأوساط الحوزويَّۀ والأوساط العامۀ.

وفى الوقت الذى كان الشباب المتديِّن يتعرَّض فيه للمطاردۀ، ويشعر بالخوف من التيَّار الشِّيوعى الأحمر الذى شجَّعه عبد الكريم قاسم لأغراضه الخاصۀ، وتقوم منظَّمات «أنصار السلام» و «الشباب الديمقراطى» و «المقاومۀ الشعبيۀ» و «لجان نصرۀ الجمهوريۀ»... بمراقبۀ أنفاسه وإحصائها، تقوم مرجعيَّۀ الإمام الحكيم بفتح أبواب المساجد والحسينيات والمكتبات لهذا الشباب الواعى. ولتمارس أيضاً ضغطاً واسعاً كبيراً تجاه بعض العناصر من العلماء أو كبار السنِّ ممَّن لم يكن يؤمن بالعمل السياسى، أو كان قد وقع تحت تأثير مواقف التيَّارات السياسيۀ المنحرفۀ أو الضالَّۀ من أجل هدايتها أو عزلها أو تحجيمها. وفى الوقت نفسه يوجِّه جميع إمكاناته لمقاومۀ هذا التيَّار الملحد[٢٦].

وقد كان هذا النَّجاح للمرجعيَّۀ فى تطوير العمل السِّياسى وإدارته يمثِّل نقطۀ البدايۀ فى تحوُّل النظريۀ للشَّهيد الصَّدر نحو فكرۀ المرجعيۀ الموضوعيۀ التى أشرنا إليها سابقاً، كما أنَّه، فى الوقت نفسه، يمثِّل المنعطف العملى فى المسار السياسى الحركى كما سوف نعرف ذلك.

لقد كان الشَّهيد الصَّدر(رض)، فى هذه المرحلۀ، يرى فى المرجعيَّۀ الرَّشيدۀ واجهۀ ضروريۀ لا يمكن الاستغناء عنها فى العمل المنظّم الخاص، وفى الوقت نفسه لا بدَّ للمرجعيۀ من أن تكون رشيدۀ وواعيۀ حتى تتكامل الصُّورۀ.

ومن هنا كان يعتقد أنَّ البديل للإمام الحكيم لا بدَّ من أن يكون مرجعاً رشيداً فى المستقبل متطابقاً فى تصوُّراته مع العمل المنظَّم الخاص حتى تصبح الصُّورة أكثر تماسك.

وكان يخطِّط للمستقبل من أجل أن يصبح هو ذلك المرجع الذى يمكنه من أن يتحمَّل المسؤوليات كاملة[٢٧].

المرحلة الثانية: المرجعيَّة الرَّشيدة واقع يتقدَّم ويتطوَّر

وتبدأ المرحلة الثانية من المسار العملى للنَّظرية عندما يبرز الشَّكُّ عند الشَّهيد الصَّدر(رض) فى دلالة آية الشُّورى على طبيعة الحكم الإسلامى، وذلك فى صيف ١٩٦٠م/١٣٨٠هـ؛ حيث انتهى إلى قرار الخروج من الحزب الإسلامى -الذى كان يتولَّى قيادته الفكرية والإشراف الدِّينى عليه- لوجود الشّبهة الشَّرعيَّة فى هذا العمل.

واقترن ذلك بأزمة سياسية أثيرت حول الحزب وعلاقته به، وكذلك حول كتابة الشَّهيد الصَّدر لافتتاحيَّة مجلَّة «الأضواء» باسم «جماعة العلماء» من دون اطِّلاع أعضاء الجماعة، بعد أن كان نشاط «الجماعة» قد تجمَّد واقعياً، وانتهت الأزمة باستقالته من الحزب واستقالة العلاّمة السيِّد مهدى الحكيم منه بطلب من الإمام الحكيم.

والسَّيِّدان الشَّهيدان، وإن كانا قد خرجا من الحزب فى آن واحد، إلاّ أنّ المسوِّغ للشَّهيد الصَّدر كان هو الشكُّ فى دلالة آية الشُّورى على النَّظرية، بالإضافة إلى العامل الرُّوحى والنَّفسى بطلب الإمام الحكيم.[٢٨] أما المسوِّغ للشَّهيد الحكيم فهو طلب والده منه والذى فسَّره الإمام الحكيم(رض) بأنَّ جهاز المرجعية يجب أن ينفصل عن الحزب، لئلاَّ تفسَّر مواقف المرجعيَّة بأنها

مواقف تتأثَّر بموقف حزبى. وكان طلب السَّيد الإمام الحكيم موجَّهاً إلى كلٍّ من السَّيد مهدى والسَّيد الشَّهيد الصَّدر.

علماً بأنَّ الإمام الحكيم كان مطّلعاً على وجود الحزب وعلى وجود علاقات المودَّة والتنسيق بينه وبين بعض أولاده، وإن لم يكن له اطِّلاع على كثير من التَّفاصيل.

وفى هذه المرحلة، لم تكن تفاصيل إطار العمل السِّياسى وشكله واضحة لدى الشَّهيد الصَّدر بعد أن اهتزّت الصُّورة الشَّرعية للعمل السياسى (الخاص) الذى كان يستحسنه، ولكن فى الوقت نفسه بدأت تتبلور صورة جديدة من خلال الممارسة العمليَّة لمرجعية الإمام الحكيم وقدرتها على التطوُّر والتعبئة الجماهيرية والاستفادة من إمكانات الأمَّة وتوعيتها على مختلف المستويات الثَّقافية والسِّياسية. ومن هنا نجد أنّ الشَّهيد بدأ يعمل على خطوط ومحاور أساسية مع وجود الفارق فى مستوى الاهتمام بينه.

الأوَّل: العمل فى إطار المرجعيَّة الدِّينية الرَّشيدة؛ حيث طوَّر الشَّهيد الصَّدر علاقته بمرجعيَّة الإمام الحكيم، وظهر ذلك واضحاً فى نهاية سنة ١٣٨٠هـ عندما توفى المرجع الكبير آية اللَّه العظمى السَّيد البروجردى (قدس سره) حتّى أصبحت فكما أشرت سابقاًف على درجة كبيرة وعالية بحيث عُدّ، فى الأوساط الحوزوية فى النَّجف الأشرف، أنَّه محسوب على مرجعيَّة الإمام الحكيم. وأخذ الشَّهيد الصَّدر يسهم فى مختلف النشاطات السياسية والحوزوية العامَّة التى تمارسها مرجعيَّة الإمام الحكيم مثل:

أ ـ النَّشاطات الجماهيرية، كالاحتفالات والزِّيارات؛ حيث كان يخطِّط لها فى جملة العلماء الواعين فى إطار المرجعيَّة.

ب – نشاطات الحوزة العلمية، كتربية الطَّلبة وتأسيس الدِّراسة المنظَّمة، ومنها مدرسة العلوم الإسلامية.

ج ـ النَّشاطات الثَّقافية والاجتماعية، كالمكتبات والمدارس وكلِّية أصول الدِّين وجامعة الكوفة...

د ـ النَّشاطات السِّياسية العامَّة التى كانت تتبنّاها المرجعيَّة، والتزم بذلک حتى الأيَّام الأخيرة من حياة الإمام الحكيم، مثل كتابة نصِّ الخطاب الذى ألقى فى الصَّحن الحيدرى فى يوم السابع والعشرين من صفر ١٣٨٩هـ والذى حدَّد الإمام الحكيم فيه موقفه العام من الأوضاع السياسية، وكذلک نصُّ المذكِّرة التى أريد تقديمها إلى حكومة انقلاب ١٧ تموز فى الأيَّام الأولى، وكذلک سفرة الإمام الحكيم إلى سامرَّاء ١٣٨٣هـ واستقبال ضريح العبَّاس، والسَّفر التَّاريخى لحجِّ الإمام الحكيم، والزِّيارة التاريخية الأخيرة لبغداد وملابساتها المختلفة، وحتى سفر الشَّهيد الصَّدر إلى لبنان لمتابعة قضيَّة محنة المرجعيَّة وقيامه هناک بحملة سياسية وإعلامية واسعة وتضحيته من أجلها[٢٩].

هـ-الاهتمام بإرسال الوكلاء وملء الفراغات فى هذا المجال؛ حيث تمَّ إرسال آية اللَّه السَّيد «إسماعيل الصدر» إلى الكاظمية وحجَّة الإسلام السَّيد «مهدى الحكيم» إلى بغداد ونقل العلاَّمة السيِّد العسكرى من البياع إلى الكرادة الشرقية وإرسال العلاَّمة الشيخ «على الكورانى» إلى الكويت وتدعيم تحرُّک آية اللَّه السَّيد «موسى الصَّدر» فى لبنان وتطوير هذا التَّحرُّک، وغير ذلک من النَّشاطات المهمَّة.

و ـ المساهمة فی التَّخطیط العام لمرجعیة السَّید الحکیم علی مستوی الحوزة فی قضایا الرَّواتب والمدارس وغیره.

الثانی: بناء الوضع المرجعی الخاص للشَّهید نفسه؛ وذلک بالاتِّجاه، بشکل مکثَّف، إلی البحث الفقهی والأصولی فی الحوزة العلمیة وإعطاء هذا البعد، فی عمله الحوزوی، أهمِّیة خاصة، بحیث یصبح الطابع العلمی الخاص هو الوجه الظَّاهر له فی الحوزة.

وفی الوقت نفسه اتَّجه نحو دراسة تاریخ الأئمَّة(علیهم السلام) وتعمیق هذه الدِّراسات وتطویرها للخروج منها بنظریَّة فی العمل والمواقف وربط حرکة المرجعیة به.

وکانت محاضراته حول الأئمَّة(علیهم السلام) والتی طبع قسم منها تحت عنوان: «أهل البیت(علیهم السلام) وحدة هدف وتعدُّد أدوار» وکذلک محاضرته حول المحنة التی تعرَّضت لها المرجعیَّة الرشیدة للإمام الحکیم، فی آخر أیَّامها، أنموذجاً لهذا اللَّون من التفکیر والدِّراسة.

الثالث: رعایة العمل الإسلامی المنظَّم الخاص من خلال ترشیده بالنصائح والآراء وحلّ المشکلات ومعالجة الصِّراعات الداخلیة له التی بدأت تهدِّد وجوده. وکذلک رعایة الوسط الحوزوی والمثقَّف بشکل عام المرتبط به وتربیته أخلاقیاً وعملی.

الرابع: بناء العنصر الحوزوی الواعی بناءً علمیاً وفکریاً وأخلاقیاً من أجل أن یکون الوسیط بین المرجع والأمَّة فی عملیة التوعیة والتوجیه والإدارة، والاهتمام بشکل خاص بإدخال دم جدید فی هذا الوسط من عناصر خرِّیجی الجامعات العلمیة والإنسانیة لتأکید الصِّلة والوحدة مع هذا القطاع المهمّ من الأمَّة.

الخامس: التفكير الجدّى والبحث العلمى للتَّوصُّل إلى تصوّر نظرى كامل حول التَّحرُّک السِّياسى للعمل الإسلامى، بحيث يتَّصف بالشُّمولية، ويتمكَّن من تفسير جميع هذه المواقف وكشف الواقع الموضوعى المعيش، ويكون قادراً على ترتيب أجزاء الصورة ويضع المفردات فى مواضعها وحسب أولويَّتها وأدوارها الصَّحيحة الشرعيَّة.

ومن خلال مراجعة سريعة لاهتمامات الشَّهيد الصَّدر نجده يتَّجه فى هذه المرحلة، عمليّاً إلى أطروحة «المرجعيَّة»، ويلتزم بإطارها وحركتها، انطلاقاً من مجموعة حقائق هى:

أ ـ الواقع الموضوعى الفعلى الذى كان يعيشه.

ب – الحالة الوجدانية والارتباط الرُّوحى الذى كان يحسُّ به.

ج ـ طبيعة واقع الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة التى كانت تعيشها الأمَّة حينذاک، والتى أصبح من الواضح، من خلالها، أنّ حركة المرجعية كانت متقدّمة عدَّة أشواط على الحركة الإسلامية والعمل المنظَّم الخاص، سواء فى عمق وجودها فى الأمَّة وارتباط الأمَّة بها، أم فى إدراكها لطبيعة الظروف وتحليلها لهذه الظروف، أم فى مواقفها من الأحداث؛ حيث كانت تتَّخذ المواقف ذات العلاقة بهذا الواقع وعلى أساس هذا التحليل وتتفاعل مع ـ الجماهير والأمَّة.

ولذا كان هذا الموضوع بالذات يحظى بالاهتمام الأكبر للشَّهيد الصَّدر، ويقف إلى جانب حركة المرجعية فى النقاط التى كانت تختلف فيها زوايا رؤية المرجعية إلى الأحداث عن زوايا رؤية العمل الحزبى لها، أو تختلف فيها المواقف تجاهه.

مع العلم أنّ المساحة المشتركة بين عمل المرجعية والتنظيم الخاص كانت واسعة وكبيرة، كما أنَّ العمل الحزبى المنظَّم آنذاک كان محدوداً فى وجوده السِّياسى وفى تصدِّياته السِّياسيَّة والاجتماعيَّة، ويمارس وجوده من خلال التَّحرُّک العام للمرجعية باستثناء اللقاءات الحزبية الخاصة أو بعض المنشورات الثقافية محدودة التَّداول.

وهناک أمثلة كثيرة على هذه الحقيقة:

١ـ الرؤية والموقف من عموم النشاط الإجمالى للمرجعيَّة والمواقف السياسية لها تجاه الأحداث، مثل: نشاط الاحتفالات والزيارات العامَّة التى كانت تستخدم وسيلةً للتعبئة العامَّة السياسية وكذلک مضمونها ومحتواها السياسى. ومثل تأسيس المدارس الرسمية وكلّية أصول الدِّين فى بغداد، ومثل الانفتاح فى العمل المرجعى وفى الحوزة على العلماء والطّلبة غير المنظَّمين والاعتماد عليهم فى الأعمال الرئيسة.[٣٠] فقد كان الشَّهيد الصَّدر مع المرجعية فى جميع هذه النشاطات مع أنّ مجمل هذه النشاطات كان يواجه انتقاداً -أحياناً- من قادة العمل الحزبى، بادّعاء أنَّها لا جدوى منها ولا تنسجم مع المرحلة التى تعيشها الأمَّة.[٣١]

٢ـ المشاركة عمليَّاً فى المواقف السِّياسية المهمَّة فى السَّاحة الإسلامية، مثل الموقف ضدّ تشريع قانون الأحوال الشخصية، وسياسة التمييز الطائفى، وسياسة تأميم التجارة وتحويل النظام الاقتصادى إلى «الاشتراكية» وغيرها. مع أنّ العمل المنظَّم الخاص لم يكن لديه موقف سياسى حركى تجاهها، ولم يتناولها فى أدبيَّاته إلاّ على المستوى الفكرى أحياناً، بالرغم من ضخامة بعض الأحداث التى عاشتها الأمَّة فى هذه المرحلة الزمنيَّة.

ولعلّ العمل الحزبی، فی تلک المرحلة، کان یعتمد علی تحرُّک المرجعیَّة فی هذه المجالات بشکل عام، ویکتفی به، إلاّ أنّه یلاحظ علیه عدم التَّصدِّی المباشر حتَّی علی مستوی البیانات العامة أو الخاصة فی داخل التنظیم.

۳ـ الموقف السیاسی من حکومة «البعث العفلقی» وانقلاب ۱۷ تموز والأحداث التی تعاقبت بعده ومحاولتها القضاء علی الوجود الإسلامی من خلال ضرب القواعد المهمَّة له، مثل الحوزة العلمیة والشعائر الحسینیة؛ وذلک من خلال الإجراءات التی اتَّخذها النظام، مثل تسفیر طلبة الحوزة العلمیة والمقیمین الإیرانیین، ومنع الزائرین من زیارة العتبات المقدَّسة، والتحرُّش بالشعائر الحسینیة، وشنّ حملة الاعتقالات العامَّة للمتصدِّین للعمل السیاسی والإرهاصات باتِّهام المرجعیة. الأمر الذی انتهی إلی قیام الإمام الحکیم بزیارته إلی بغداد للمواجهة، وقد تردَّد الحزب فی القیام بعمل سیاسی فی هذا المجال، واکتفی بمراقبة الأوضاع، وبعد ضغط الشَّهید الصَّدر والعلاَّمة السَّید مرتضی العسکری وغیرهما من العناصر المؤثِّرة علی الحزب استجاب جزئیاً فی أوَّل الطریق، ثم عدل عن المواجهة بدعوی الالتزام بمنهج المرحلیة[۳۲]؛ وذلک فی الوقت الذی کانت المرجعیة تمرُّ فیه بأشدِّ المحن والأزمات وأقساها، ویکون الشَّهید الصَّدر مستعداً للتَّضحیة بدمه الشریف فی هذا المجال؛ حیث طرح مشروع التوقیع علی مذکَّرة احتجاج بالأسماء الصریحة بعد المذکّرة التی قدَّمها السیِّد مهدی الحکیم للنظام باسم جماعة علماء بغداد والکاظمیة والتی یحتجُّ بها علی مجمل التَّصرفات ویدین النظام علی أساسها ویقدّم اقتراحات محدَّدة بشأنها[۳۳].

وقد سافر الشَّهید الصَّدر، بعد ذلک، إلی لبنان متحمِّلاً أشدّ الأخطار من أجل أن یقوم بحملة سیاسیة وإعلامیة لدعم موقف المرجعیَّة وإسنادها والدفاع عنها...

فی مثل هذا الظَّرف، لم تکن القیادة فی التنظیم الخاص علی استعداد لإصدار منشور یشجب هذا الموقف من السلطة تجاه الأمَّة والمرجعیَّة، بل ولا لتوزیع منشور أبسط من ذلک[۳۴].

وانسحبت القيادة من تعهُّدها بالقيام بتظاهرات عندما يقوم البعثيون بالتحرُّش بالمرجعيَّة[٣٥].

٤ـ الموقف من أزمة إخراج آية اللّه، السيِّد «إسماعيل الصَّدر»، من الكاظمية وملابساتها؛ حيث اهتمَّ الشَّهيد الصَّدر بالمواجهة مع النظام وتطوُّراتها، وعبَّرَت عن الموقف الحقيقى فى إسناد المرجعيَّة ودعمها الأوساط العشائرية العراقية، سواء فى الكاظمية أم فى منطقة الفرات الأوسط[٣٦].

٥ـ الموقف من المواكب الحسينية؛ حيث تمَّ إيقاف مواكب الطَّلبة فى الجامعة والتى كان وراء تنظيمها «التنظيم الخاص»، والتى كانت تحظى بتأييد متميّز من المرجعيَّة الدِّينية؛ إذ تحوَّلت بهذا الإسناد إلى ثقل سياسى؛ حيث أخذت تشترك فيه عناصر ذات انتماءات عامَّة؛ الأمر الذى أدَّى بالتنظيم إلى أن يوقف إخراج هذه المواكب تجنُّباً للمواجهة مع النِّظام.

ولكن استمرَّت المواكب فى المناطق الأخرى انسجاماً مع التوجُّه المرجعى.. وهذا الموقف من «التَّنظيم الخاص» كان بخلاف موقف الشَّهيد الصَّدر الذى كان يرى فى وجود المواكب الحسينية واستمرارها ضرورة وأهمِّية خاصَّة، وكان يحثُّ طلاّبه على الاهتمام بها وتشجيع الآخرين على الاستمرار، حتى كان أحد الأسباب الحقيقية لشهادة حجَّة الإسلام السيِّد «عماد الدين الطباطبائى» ورفاقه هو هذا الموقف من الشَّعائر.

وبالإضافة إلى هذا التوجُّه فى العمل المرجعى، قام الشَّهيد الصَّدر بالانفتاح على الأوساط الشَّعبية كخطوة أخرى فى هذا المجال، ولا سيَّما بعد وفاة أخيه آية اللّه السيِّد «إسماعيل الصَّدر»؛ حيث

أخذ يهتمّ بالسَّفر إلى الكاظمية وبغداد، ويلتقى بالأوساط الشعبية والاجتماعية هناک بشكل واسع ومفتوح، وكان للتنظيم الخاص دور فى تأييد هذا التوجُّه وإسناده بطبيعة الحال.

ونجد الشهيد، بعد ذلک، يركّز على الجانب العلمى ويعطيه أولوية خاصَّة فى عمله، ويبنى القاعدة الحوزوية القوية فى المجال العلمى، ويتجنّب إلى حدٍّ كبير مواطن الإثارة ضمن العمل المنظّم الخاص، وكل ذلک كان يتمُّ ضمن تنسيق وتفاهم عمليَّين وواقعيَّين مع التَّنظيم الخاص غير مكتوبين أو مقرَّرين، بحيث كانت الصورة مختلطة ومبهمة فى نظر الكثير من القريبين أو المراقبين للشهيد الصَّدر، سواء فى أوساط التنظيم الخاص أم فى أوساط الحوزة العلمية أو غيرهم.

وقد كان التَّنظيم حريصاً، فى هذه المرحلة، على أن يعرف الشَّهيد الصَّدر، فى أوساطه، بطريقة الإيحاء أو التلميح، بأنَّه قائده، بل كان بعضهم يجرؤ ويروّج ذلک صراحة كما اتّضح فى ما بعد[٣٧].

المرحلة الثالثة: المرجعية وولاية الفقيه

ولا أتذكَّر بالضَّبط فى أى وقت انتهى الشَّهيد الصَّدر إلى رأيه الفقهى القائل بولاية الفقيه المطلقة[٣٨]، ولكن يمكن أن نؤرِّخ للمرحلة الثَّالثة فى المسار العملى لنظريته فى التحرُّک السياسى فى هذا التاريخ الذى يقع، على ما أظنُّ، فى أواخر الثَّمانينات الهجرية، أى أواخر مرجعية الإمام الحكيم(رض).

ويكون الشَّهيد الصَّدر، بوصوله إلى هذه الرؤية الفقهية، قد توَّج توجُّهه العملى السِّياسى بهذه النظرية الفقهية؛ حيث عرفنا، من خلال المرحلة الثانية، أنَّه اتَّجه عملياً إلى مضمون هذه الرؤية الفقهية، وإن لم يكن قد قال بها بالفعل.

ومن خلال هذه الرُّؤية بدأت تتطوَّر الأحداث فى التَّطبيق العملى بعد المسيرة السابقة التى أشرنا إليه.

أنشأ الشَّهيد الصدر، فى جهازه الخاص، مجلساً للاستشارة أراد له أن يكون بذرة لمجلس استشارى يكون ضمن جهاز المرجعية، وهو يضمُّ مجموعة من خيرة طلاَّبه المتقدِّمين اختارهم لهذا المجلس، وكان يضيف إليهم من يراه قد وصل درجة النُّضج والكمال لبعضهم أو من أجل الإعداد والتَّدريب السِّياسى والاجتماعى لبعضهم الآخر.

وأعضاء هذا المجلس، وإن كانوا يتفاوتون فى مستواهم العلمى والفهم الاجتماعى، فإنَّهم كانوا يشتركون فى الإيمان بمرجعية الشَّهيد الصَّدر، وأنَّه يمثِّل الأطروحة الصالحة للمرجعيَّة الرَّشيدة مستقبلاً، بالإضافة إلى انتمائهم جميعاً إلى الوسط العلمى والحوزوى.

وكانت تطرح القضايا والمشاكل والنَّشاطات المهمَّة فى هذا المجلس الاستشارى، بالإضافة إلى الأبحاث الجانبية، وتنضج بهذا الشكل الرؤية تجاهها، وتُتَّخذ بحقِّها القرارات المختلفة.

مرجعيَّة الإمام الخوئى

وفى البداية -بعد وفاة الإمام الحكيم عام ١٣٩٠هـ ـ قرّر الشَّهيد الصَّدر دعم مرجعيَّة آية اللَّه العظمى السَّيد الخوئى اعتماداً على النقاط الآتية:

١ـ انفتاح آية اللَّه العظمى السَّيد الخوئى على مشاكل مرجعيَّة الإمام الحكيم الميدانية فى العراق وموقفه الإيجابى، نسبياً، من الإمام الحكيم وحركته السِّياسيَّة فى أيَّامه الأخيرة على الأقل.

٢ـ العلاقات القويَّة التى تربط الشَّهيد الصَّدر بآية اللَّه الخوئى والثَّقة المتبادلة بينهما، وهى علاقات كان الشَّهيد الصَّدر يرى، من خلالها، إمكانية التأثير على آية اللَّه الخوئى فى البقاء فولو نسبياًف فى خطِّ مرجعية الإمام الحكيم، لا سيَّما وأنّ تصوُّرات آية اللَّه الخوئى عن العمل الإسلامى، نظريّاً، كانت قريبة من نظريَّة الشَّهيد قبل أن يقول بولاية الفقيه المطلقة.

٣ـ الشُّعور بالفراغ ووجود الأخطار بعد وفاة الإمام الحكيم فى تلك الظروف المأساوية (المحنة) التى تهدِّد المرجعية والعمل الإسلامى العام والإنجازات التى توصَّلت إليها مرجعية الإمام الحكيم، وكذلك الاهتمام بملء هذا الفراغ من خلال وحدة المرجعية فى العراق، وكان آية اللَّه الخوئى هو المرجع الوحيد الذى يمكن أن تجتمع عليه الكلمة فى العراق نسبىَّ.

ولعلّ هذه النقطة هى أهمّ النُّقاط الثلاث.

وقد حاول الشَّهيد الصَّدر أن يتوثّق من ذلك عن طريق أحاديث مباشرة وغير مباشرة -بوساطة بعض طلاَّبه- مع آية اللَّه الخوئى لمعرفة وجهة نظره فى هذا المجال، وكانت نتائج المباحثات إيجابية.

ولكن لم يمرّ وقت طويل حتى أصبح من الواضح أنّ آية اللَّه الخوئى فكما صرّح هو بنفسه أيضاً- لم يكن قادراً أو مؤهَّلاً للقيام بهذا الدور الدِّينى بأبعاده الاجتماعية والسياسية، لا سيَّما فى ظروف المحنة والحكم القمعى الوحشى الذى يمارسه البعثيون العراقيُّون.

الشَّهيد الصَّدر (رض) فى واجهة التَّصدّى

ولا أريد، هنا، أن أتناول هذا الموضوع الشّائک بتفاصيله وملابساته، ولكن الواقع الذى واجهه الشّهيد الصّدر وتتابع الأحداث دفع به، على غير رغبة منه، إلى أن يدخل فى مواجهة الأحداث بشكل مباشر.

ومن هذه الأحداث المحاولة الأولى للتّسفير العام للحوزة العلمية ـ بعد وفاة الإمام الحكيم فى أواخر سنة ١٣٩٢هـ‍ـق؛ حيث كان آية اللّه الخوئى مريضاً راقداً فى المستشفى فى بغداد وعلى أبواب السّفر إلى لندن للمعالجة، وكان طلاّب الحوزة العلمية والعلماء فى حيرةٍ من موقفهم تجاه الإنذار بالسفر الذى وجّهته الحكومة المجرمة عن طريق مكبّرات الصوت السيّارة، وكان الشّهيد الصّدر فى زيارة توديعيّة لآية اللّه الخوئى ونقل له مجمل الأوضاع فى النجف، ورجّح له أن يتّخذ موقفاً واضحاً من هذه القضيّة، وهو الطّلب من الحوزة الامتناع عن السفر، ووافق آية اللّه الخوئى على ذلک، ونقل الشّهيد رسالته إلى حاشية السّيد الخوئى وكبار الحوزة العلمية.

ويبدو أنّ الحاشية كان لها رأى آخر بالموضوع وتقدير آخر للموقف، فلم تستجب لمتطلّبات الرسالة، بل أمعن بعضهم فى الموقف السلبى بأن أبرز التّشكيک بصحّته.

وهكذا تمّ تسفير عدد كبير من العلماء والطلبة حتى أنقذ الموقف الإمام الخمينى(رض) الذى تدخّل فى الأمر، ولأوّل مرّة، وأعلن تعطيل الحوزة احتجاجاً على هذا القرار، وطلب عدم الاستجابة للسّفر، فأعلنت الحكومة العدول عن قرارها، بعد أن أرسلت «على رضا»، أحد كبار مسؤولى المخابرات العراقية آنذاک[٣٩]، للتّفاوض مع العلماء فى النجف؛ حيث اجتمع بالإمام الخمينى وغيره من العلماء، وأسمعه الإمام كلاماً واضحاً وقوياً تجاه هذا الموضوع.

وكان للشّهيد الصّدر دور كبير فى التّنسيق ودعم هذا الموقف القوى الجديد فى الحوزة تجاه الحكم العفلقى المجرم.

كما كان من هذه المواقف والأحداث البرقيَّة التى أرسلتها الحوزة العلميَّة إلى أحمد حسن البكر تطالبه بإيقاف التَّسفيرات بتوقيع كبار العلماء، أمثال آية اللّه الشيخ مرتضى آل ياسين وآية اللّه السيِّد محمَّد سعيد الحكيم وآية اللّه الشيخ محمَّد جواد آل شيخ راضى وغيرهم، والتى سعى الشَّهيد الصَّدر إلى ترتيبها[٤٠].

ومنها التهيُّؤ لمواجهة التوقُّعات التى كانت موجودة فى إقدام حزب البعث العفلقى المجرم على تحجيم المواكب الحسينية فى الأربعين واحتوائها؛ حيث قام الشَّهيد الصَّدر بتوعية أصحاب المواكب وإلفاتهم إلى هذه المؤامرة الدَّنيئة ضد الشَّعائر الحسينية والتى تطوَّرت الأحداث تجاهها تدريجياً بعد ذلک فى السنوات التالية حتى كانت انتفاضة صفر المحدودة سنة ١٣٩٦هـ وانتفاضة صفر الدموية الأخرى سنة ١٣٩٧هـ والأحداث المؤلمة التى رافقتها[٤١].

وكان لتلک الجهود التى يبذلها الشَّهيد الصَّدر أثر مهمٌّ فى مجال تأخير تنفيذ الحكم المجرم لمؤامرته ضدّ الإسلام وضدّ الشَّعائر الحسينية بشكل خاص من ناحية، وتوعية الجماهير فى الوقوف تجاه هذه المؤامرة الإجرامية من ناحية أخرى.

وبسبب هذه الجهود التى كنت أساهم فيها مع شهيدنا الغالى كانت ردّة فعل النِّظام المتمثّلة باعتقالى وبالمحاولة الفاشلة لاعتقال الشَّهيد الصَّدر ونقله إلى بغداد سنة ١٣٩٢هـ[٤٢] وكذلک اعتقال عدد من العلماء والمجاهدين فى الوقت نفسه وإطلاق سراحهم فى النجف. ولكن موقف آية اللّه الشيخ مرتضى آل ياسين [٤٣]وجماعة من العلماء وطلاَّب العلوم الدينية من ناحية، وصمودى أمام عمليَّات التعذيب التى مورست ليلة الاعتقال لانتزاع الاعترافات الكاذبة [٤٤]والنشاط السياسى الذى قمت به بعد الاعتقال لكسر حاجز الرُّعب والخوف الذى حاول البعثيُّون إيجاده أفشل المؤامرة بكاملها، بل أعطى التَّحرُّک المرجعى للشَّهيد الصَّدر زخماً جديداً من ناحية، ووضع الشَّهيد الصَّدر

وحوزته فى الخطِّ الأوَّل من المواجهة من ناحية أخرى، وأصبح الشَّهيد الصَّدر أطروحة المرجع الدينى المتصدِّى للنظام العفلقى.

وفى هذه الأثناء، وبعد هذا التطوُّر فى التَّصدِّى، أى فى أواخر سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، قام الشَّهيد الصَّدر بطرح موضوع حسّاس ومهمّ حول العلاقة بين الحوزة العلمية والتنظيم الخاص الذى كان يوليه حينذاک رعاية خاصة، وكان هذا الطرح فى المجلس الاستشارى الخاصّ به.

وكانت تصوّرات الشَّهيد الصَّدر تقوم على أساس أنّ الحوزة، بتشكيلاتها وتنظيماتها، تمثِّل القيادة الأساسية للعمل الإسلامى، ولا بدَّ لهذه الحوزة من أن تكون مستقلَّة عن العمل المنظّم الخاص.

وقد تمَّ بحث هذا الموضوع فى عدَّة اجتماعات، وكان يوجد اتِّجاهان فى المجلس:

أحدهما: كان يتبنّى ضرورة إبقاء المجال مفتوحاً أمام العمل المنظَّم الخاص ليمارس نشاطه فى الحوزة استناداً إلى أنّ هذا هو السَّبيل الطَّبيعى المتيسِّر أمامنا لتوعية طلبة الحوزة العلميَّة على العمل السِّياسى وحمل همومه. ومن دون ذلک فسوف ينخفض هذا الوعى فى الأوساط الحوزويَّة خصوصاً الطلبة الجدد الذين لا يخضعون لضوابط أو توعية فى الحوزة، ويتعرَّضون عادةً إلى الضغوط الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة فى الحوزة، بحيث قد يتعرَّضون إلى العزلة أو الانكفاء على الذات أو ترک الهموم السِّياسيَّة.

مضافاً إلى أنّ فصل الارتباط العضوى قد يؤدِّى بالعمل المنظّم الخاص إلى الانحراف والابتعاد تدريجيَّاً عن المرجعيَّة الرَّشيدة الصالحة وتأثيرها فيه، لأنَّ وجود العلاقة العضوية بين الطلبة

والعلماء والعمل المنظَّم الخاص سوف يسمح بشكل طبيعى بوجود التأثير المتبادل بين الحوزة والعمل المنظَّم الخاص.

وثانيهما: الاتِّجاه الذى كان يرى ضرورة فصل الحوزة عن هذا العمل باعتبار وجود المحور الصالح وأطروحة المرجع الواعى المتمثِّلة بالشَّهيد الصَّدر وحوزته الذى يمكن أن يكون مصدر الهداية والتوعية فى هذا المجال، وباعتبار الإيمان الفعلى للعمل المنظَّم الخاص بالمرجعيَّة الرشيدة للشَّهيد الصَّدر على مستوى الواقع العملى من ناحية، وباعتبار وجود الأجهزة النامية للمرجعيَّة التى يمكنها أن تمارس التوعية فى أوساط الحوزة العلمية من ناحية أخرى.

مضافاً إلى أنّ ضرورة استقلال الحوزة تنبع من موقعها القيادى فى الأمَّة الذى يفرض هذا الاستقلال، لأنَّه هو الذى يمكِّنها من التأثير فى الأمَّة من خلال هذا الموقع بعيداً عن الشُّبهات مع ضرورة ممارسة التوعية فى الحوزة وانطلاقاً من المراكز الحوزويَّة الأصيلة.

وكان كلٌّ من الاتِّجاهين يؤمن فعلى مستوى المجلس الاستشارى والأحاديث المطروحة فيه على الأقلّ بصحَّة الفصل والاستقلال نظرياً، ولكن المشكلة التى كانت مطروحةً للبحث هى النتائج العملية لهذا الفصل التى قد تكون مقرونة ببعض المواقف السلبية أو الخسائر فى مجال التوعية.

وفى النِّهاية، تمَّ التوصُّل إلى قرار عملى فمع التحفظ تجاهه من قبل بعض أعضاء الجلسة إيجابياً وسلبياًف وهو يتضمَّن النُّقاط الآتية:

١ـ أن يتمّ الفصل كلّياً، على مستوى أجهزة المرجعية الخاصة، والعناصر الإدارية والاستشارية لها، وبين العمل المنظَّم الخاص لتحقيق الاستقلال على هذا المستوى.

٢ـ أن يتمَّ الفصل بين الحوزة، بشكل عام، والعمل المنظَّم على مستوى دراسة السَّطح والخارج[٤٥]، بحيث يتمّ إبلاغ الطلبة المنظّمين على هذا المستوى بشكل خاص بفكِّ الارتباط العضوى مع التَّنظيم الخاص.

٣ ـ يسمح للطَّلبة ذوى الدراسات الأوَّلية (المقدّمات) بأن يرتبطوا بالتَّنظيم الخاص مؤقَّتاً من أجل تحقيق التوعية السياسية فى هذا القطاع مؤقَّت.

٤ ـ يستثنى من البند الثانى الأشخاص المرتبطون بالتَّنظيم الخاص الذين يكون لوجودهم دور مهمٌّ فى إدارته وتثقيفه، بحيث يؤدِّى فكُّ ارتباطهم منه إلى إيجاد الاختلال فى الوضع التَّنظيمى الخاصّ على المستوى العملى والثقافى.

الحوزة العلميَّة.. وموقفها من مرجعيَّة الشَّهيد الصَّدر(رض)

وكانت هناك تساؤلات وشبهات حادَّة ومهمَّة مطروحة، على مستوى الحوزة العلميَّة والأمَّة، حول الشَّهيد الصَّدر وعلاقته -بالتنظيم الخاص- خصوصاً بعد تصدِّيه للمرجعيَّة وبروزه فى صدر الأحداث؛ وذلك باعتبار عدَّة عوامل وأسباب، منها وجود العلاقة التاريخية ابتداءً بينه وبين التنظيم الخاص، ومنها وجود الرعاية للتنظيم الخاص بقاءً واستمراراً من قبله، ومنها ارتباط عناصر التَّنظيم الخاص به روحيَّاً ومعنوىَّ.

وكانت وراء هذه التساؤلات دوافع عديدة، منها دوافع «مخلصة»، لأنَّ قدسيّة المرجعيَّة ودورها المهمّ فى الأمَّة وموقعها من العمل الإسلامى وسعة دائرتها وعمق نفوذها لم يكن يسمح لها، فى

ذهن الحوزة والأمَّة معاً، أن تكون فى إطار تنظيم خاص أو حزب محدود. وكان هذا الموضوع يعيش فى وجدان الأمَّة ومشاعرها وأذهانها بعيداً عن النظريَّات والمفاهيم. علماً أنّ النظرية والإحساس معاً يدعمان هذا التصوُّر فى فهم الشهيد الصدر كما ذكرنا، كما أنّ هذا الأمر هو الذى دعا الإمام الحكيم لأن يطلب من الشَّهيد الصَّدر ومن ولده السَّيد مهدى الحكيم الخروج من التنظيم الخاص.

ومن هنا كان بعض المخلصين من الأمَّة يقفون من مرجعيَّته موقفاً سلبياً أو متردِّداً تشوبه الحيرة والارتياب ويطرحون هذا التساؤل: ما هو مدى علاقة الشَّهيد الصَّدر بالتَّنظيم الخاص؟ وما هى طبيعة هذه العلاقة؟

وعندما يجابون بنفى العلاقة يذكرون الشَّواهد والأرقام ذات المداليل الظنِّية الحدسية أو شبه الحسِّية، ومنها هذه الشواهد، وهى أنّ أكثر المرتبطين به وخاصتهم يرتبطون عضوياً بالعمل المنظَّم الخاص.

ولكن كان إلى جانب هذا الدافع المخلص المشوب بالكدر والظَّن دوافع أخرى تتراوح بين «الحرص» على مصلحة الشَّهيد الصَّدر وف«التَّخلُّف» فى الرؤية السياسية وف«مرض القلب». لأن بعض هؤلاء الناس كانوا يتساءلون بدافع آخر ينطلق من عدم إيمانهم بالعمل السياسى مطلقاً، فكيف إذا كان العمل السياسى بهذا المستوى الصارخ الشامل، ويرون فى الارتباط بالعمل الحزبى أوضح ألوان الممارسة السياسية ذات الأسلوب الغريب عن المجتمع الإسلامى والتى عرفها من خلال التأثُّر بالحضارة الغربية وأساليبها فى العمل السياسى[۴۶].

وبعض آخر كان يعادى مرجعيَّة الشَّهيد الصَّدر لأسباب شخصية أو إقليمية أو سياسيَّة، وكان يستغلُّ هذا السُّؤال ويعطيه أبعاداً مختلفة وحجماً كبيراً، ويستفيد إلى حد كبير من حالة الغموض

والسِّريةُ فى تشويه الصُّورةُ العامةُ لمرجعيةُ الشَّهيد الصَّدر، لا سيما أنّ مرجعيته كانت «ناشئةُ»، وقد طرحت من خلال العمل السياسى والمواجهةُ مع النِّظام المجرم. ولعب بعض الأفراد – فى حاشيةُ بعض المراجع فى هذه الآونةُ بالذاتف دوراً غير أخلاقى فى هذا المجال.

كما أنّ تصرُّفات بعض المحبِّين للشَّهيد الصَّدر وأساليب التعبير عن حبّهم ومودّتهم واعتقادهم، التى لا تتصف بالحكمةُ والحنكةُ، ساعدت هؤلاء على تحقيق أغراضهم الفاسدةُ، فكانت تثير كوامن الحسد أو الحقد أو الغيظ، أو غير ذلک من المشاعر التى يبتلى بها عامَّةُ النَّاس.

وإلى جانب ذلک، كان يوجد بعض المحبِّين والعارفين بالشَّهيد الصَّدر، ومنهم آيةُ اللّه العظمى السَّيد الخوئى، كانوا يرون أنَّ تصدِّيه للمرجعيَّةُ فى هذا الوقت المبكِّر، سوف يعرِّضه للأذى والتحجيم وأنّ من الضرورى الانتظار قليلاً، وعندئذٍ فسوف تكون المرجعيَّةُ له بلا شكّ.

كما أنّ بعضهم كان يرى، فى هذا التصدِّى، خرقاً للقواعد العرفيةُ الحوزويةُ التى يراعى فيها عادةُ موقع الطبقةُ العلميةُ وأنَّ وجود أستاذه فى قيد الحياةُ وفى موقع المرجعيةُ لا يناسب هذا التصدِّى.

وقد كان النظام المجرم يضغط بأساليبه الخبيثةُ، والقاسيةُ، باتِّجاه «إسقاط» شخصيَّةُ الشَّهيد الصَّدر وتحجيمها فى دائرةُ معيَّنةُ، ليسهل عليه الانفراد به؛ حيث كان يطلق الإشاعات ويهدِّد ويتوعَّد بهذا الاتِّجاه. وذلک لأنَّ النِّظام المجرم يدرک أنّ المرجعيةُ الرَّشيدةُ الصَّالحةُ هى أقوى وجود إسلامى يمكنه تعبئةُ الأمَّةُ ضد النِّظام الفاسد المستبدّ وقيادتها فى مسيرتها الإسلاميةُ.

كما كانت الأمَّة، أيضاً، تدرک هذه الحقيقة، لا سيَّما إنّ مرجعية الإمام الحكيم التى حقَّقت الإنجازات الكبيرة، فى هذا المجال، على مستوى الأمَّة، كانت قد نبّهت الأعداء إلى هذه الحقيقة الكبيرة لدور المرجعية والتى نامت عنها عيون الأعداء بعد عزلة المرجعية السابقة[۴۷].

كلّ هذه الأمور جعلت الشَّهيد الصَّدر يفكِّر بشكل أعمق وأكثر جدية بأن يتبنَّى عملياً ونظرياً الاتِّجاه إلى بناء المرجعية والحوزة العلمية وجهازها واستقلالها، ويعطى ذلک الأولويَّة فى الاهتمام، مع اهتمامه، فى الوقت نفسه، برعاية العمل المنظّم الخاص الذى يمكن أن يكون ذا أهمِّية فى بعض المجالات والأعمال.

وكان من جملة النَّشاطات لبناء الحوزة الاتِّجاه إلى رعاية الطَّلبة علمياً ومادياً، ومحاولة تطوير «نظام طبيعى»[۴۸] ومشجّع للحوزة عن طريق الدِّراسة المنظَّمة فيها من جهة، وتعميق الضَّوابط الموضوعية والأخلاقية التى تحكمها وتطبيقها تدريجياً من جهة ثانية.

فكّ الارتباط بين المرجعيَّة والتَّنظيم الخاص

وفى تطوُّر آخر للأحداث، على مستوى العمل المنظَّم الخاص والحوزة، تمَّ اعتقال أحد العناصر المهمَّة فى التنظيم الخاص الذى قدَّم اعترافات واسعة عن التنظيم تشمل مجموعة من خيرة طلبة العلوم الدينية؛ حيث تمَّ اعتقالهم أيضاً[۴۹].

وتكشَّفت خطوط العمل لتطول مجموعة من طلاَّب الشَّهيد الصَّدر وطلاّب حوزته وبعض خاصَّته.

وقد كان ذلک «مفاجأة كبيرة» للشَّهيد الصَّدر بهذه الحقيقة والواقع، وتبيَّن له أنّ مجموعة من طلاَّبه ومقرّبيه قد انتموا إلى التنظيم الخاص، معتقدين أنّ ذلک برأيه ونظره وموافقته وبسعى من

أحد طلاَّبه المقرَّبين إليه جداً، الذى لم يتمّ إبلاغهم بالقرار السابق المذكور بشكل مناسب على الأقل، وكانت صدمة نفسية فوسياسية- قاسية وكبيرة لخطَّته وتصوُّراته السِّياسيَّة عن العمل حتَّى أصيب على أثر ذلک بالمرض عندما قام هذا الأخ (الطالب الفاضل) المقرّب إليه باعتراف للشَّهيد الصَّدر بالحقيقة كاملة مع إخباره بعزمه على الهجرة من النجف خوفاً من الاعتقال لأنَّه كان يحتمل قوياً أن يعترف عليه بعض المعتقلين، ويكون ـ ذلک كارثة للشَّهيد الصَّدر وللحوزة العلمية فاحتاط بالخروج. وقد كان ظنّه صحيحاً، وتوالت عليه الاعترافات الصحيحة وغير الصحيحة خصوصاً بعد أن خرج من العراق.

وقد استفاد هذا الأخ فى الخروج من الاختلاف بين اللقب الرسمى له المثبت فى الجواز ووثيقة الإقامة، وبين اللقب المعروف عنه فى الأوساط العلمية والاجتماعية، وتمكَّن من الخروج من النجف إلى إيران[٥٠].

وعلى أثر ذلک، قام الشَّهيد الصَّدر(رض) باتِّخاذ إجراء عاجل، وهو إبلاغ جميع هؤلاء الطلاَّب والمقرَّبين بضرورة الخروج من العمل المنظّم الخاص.

كما قام بإبلاغ بعض المسؤولين الكبار فى التَّنظيم بضرورة إصدار بلاغ من القيادة إلى التنظيم الخاص يطلب منهم فكّ الارتباط مع جميع طلاَّب الحوزة ومدرِّسيها والوكلاء فى البلدان. ومن دون ذلک فسوف يقوم الشَّهيد الصَّدر بإصدار حكم، باعتباره الفقيه الولىّ، بحرمة الانتماء إلى التنظيم الخاص بالنسبة إلى طلاَّب الحوزة العلمية وغيرهم من الأجهزة[٥١].

وبعد ذلک، أُعتقل عدد كبير من طلاَّب الشَّهيد الصَّدر ووكلائه وأصدقائه من العلماء وغيرهم، وكانت هناک قوائم معدَّة للمزيد من الاعتقالات كان الشَّهيد الصَّدر ضمنها وكذلک «كاتب هذه السُّطور» وغيرهما. وكان ضمن المعتقلين طلاّب لم يكن لهم انتماء إلى التنظيم الخاص مطلقاً،

وآخرون كان لهم انتماء إلى التنظيم الخاص، ولكنَّهم كانوا قد خرجوا منه بطلب الشَّهيد الصَّدر، وآخرون كانوا منتمين إليه بالفعل.

ثمَّ بعد مداخلات كثيرة من الحوزة، ومنها مداخلة آية اللَّه السَّيد الخوئى، ومن خارجها، ومنها مداخلة السَّيد موسى الصَّدر، تمَّ إطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين مع الاحتفاظ ببعضهم. وتبيّن بعد الإفراج عنهم عدَّة قضايا:

١ـ أنّ معظم المعتقلين قد انتزعت منهم اعترافات بالانتماء إلى التنظيم الخاص، وبعضهم تمَّ ترتيب هذا الاعتراف له فى المعتقل، تفادياً للتَّعذيب مع عدم كونه منتمياً حقيقياً أو له ارتباط بأشخاص غير الذين تمَّ الاعتراف عليهم.

٢ـ أنَّ التفكير العام الذى كان يسود أفراد التنظيم الخاص هو صحَّة الاعتراف بالانتساب إليه والتَّكتُّم مهما أمكن على أكبر قدر ممكن من المعلومات، وأنَّ هذا هو أفضل طريق لمواجهة حملة القمع والاعتقالات باعتبار وجود تجربة سابقة مشابهة فى السِّنين الماضية.

٣ـ أنَّ هناك ضغطاً شديداً تمَّت ممارسته من قبل السُّلطة لانتزاع اعتراف ضدّ الشَّهيد الصَّدر، فى هذا المجال، من بعض المقرَّبين إليه وبتشجيع بعض المعتقلين انسياقاً مع الجو العام، ولكنَّ صمود بعض الأخوة، كالسيِّد «محمود الهاشمى»، وتشجيع الشَّهيدين: الشيخ عارف البصرى والسيِّد عماد الدين الطباطبائى على الصمود، منع وقوع هذه الكارثة للشعور بخطورة هذا الاعتراف بشكل خاص.

٤ـ أنّ الفكرة العامَّة التى تمَّ استنتاجها، لدى النِّظام، وكذلك لدى الأوساط العلمية فى النجف، هو: أنّ الشَّهيد الصَّدر مرتبط بالتنظيم، باعتبار أنّ جميع هؤلاء الأخوة كان لهم ارتباط وثيق

وقريب جدّاً به، بالرغم من أنّ أكثرهم حاول أن يدفع هذه الشبهة فى داخل المعتقل من طريق الجواب عن سؤال: لمن ترجع بالتقليد؟ بأنَّ مرجعهم هو آية اللّه السَّيد الخوئى.

وكان الشَّهيد الصَّدر يقول: إنّ هذا الاستنتاج طبيعى بعد أن كانت الاعترافات سهلة وعامَّة تقريباً من قبل الأخوة وإنّ هؤلاء يشكّلون القاعدة ـ الظَّاهرية لحوزته.

٥ـ أنّ هناك مجموعة من أفراد التنظيم الخاص كانت تعتقد فعلاً أنَّ الشَّهيد الصَّدر هو رأس التنظيم أو المنظّر له أو الفقيه الذى يرجع إليه التنظيم، وكانت هذه الفكرة تلقى بشكل أو بآخر إلى أفراد التنظيم من قبل بعض المسؤولين فى الحلقات.

ومن هنا نجد الشَّهيد الصَّدر يتَّخذ عدَّة إجراءات احترازية:

١ـ إصدار جواب لاستفتاء مكتوب[٥٢] ينصّ على أنَّه كان قد أصدر حكماً بعدم جواز انتساب طلاَّب العلوم الدِّينية إلى التنظيمات الخاصَّة.

٢ـ منع بعض الوجوه المعروفة بانتمائها إلى التنظيم الخاص، لا سيَّما من صدر منه الاعتراف بذلك، عن التردُّد إلى منزله من أجل تغيير الصورة الشكليَّة لحوزته وإعطائها البعد الدِّينى العام.

٣ـ المنع من الحديث عن علاقته بالتنظيم الخاص، سواء على مستوى التاريخ أو التأييد أو الرِّعاية، وكان يظهر انفعالاً شديداً من سماع ذلك.

۴ـ التوجُّه بشكل أشمل وأوضح إلى الأعمال الحوزوية بالصِّيغ المعروفة والانفتاح الواسع عملياً على القطاعات العامَّة للأمَّة والحوزة، كمجلس التعزية الأسبوعى والمقابلة العامَّة مع الناس والاهتمام ببعض الوجوه الحوزوية التقليدية النظيفة والمعروفة، بل وغيرهم وإدخالهم فى بعض نشاطاته.

۵ـ تشكيل لجان عمل فى داخل جهاز مرجعيَّته تقوم بالنشاطات الحوزوية من رعاية الطَّلبة إلى إرسال الوكلاء والاتِّصال بهم، إلى تأليف بعض الكتب الدينية والثقافية لإعداد منهج ثقافى للحوزة.

۶ـ التصدِّى العام للقضايا التى تهمُّ الأمَّة وفتح الحوار نيابةً عن الأمَّة مع السلطة حول هذه القضايا، وقد تجلّى ذلک بشكل واضح فى قضية الدفاع عن الحوزة العلمية وتسفيرات سنة ۱۳۹۲هـ ـ ۱۹۷۲م، التى مرَّ ذكره.

وقضية المواكب والشعائر الحسينية وقضايا أخرى.

ومنها قضية (۱۷) صفر ۱۹۷۷م ـ ۱۳۹۷هـ التى قام الشهيد الصدر بإرسال وفد فيها عندما طلبت منه الحكومة ذلک بوساطة «السيِّد مصطفى جمال الدين» بعد إعلان موافقتها على التراجع عن موقفها تجاه قضية منع المواكب، وكنت ممثِّلاً له فى هذا الشأن بعد إلحاحه علىَّ بالقيام بهذه الخطوة، وانتهى الأمر، بعد ذلک، بالموقف الخيانى للحكومة والموقف البطولى للجماهير والرعاية الواعية للمرجعية؛ حيث كانت الجهة الإسلامية الوحيدة التى تبنَّت الجماهير وانتفاضتها وتحمَّلت نتائج ذلک.

وقد تمَّ اعتقالی بعد ذلک والحکم بالسجن المؤبَّد علیّ، والتهمة التی کانت موجَّهة هی تحریض الجماهیر علی الانتفاضة والتَّخطیط لها، وکان مستند الحکومة فی هذه التهمة مضمون الحدیث الذی تحدَّثت به مع مجموعة من قادة الانتفاضة فی لیلة (١٨) صفر فی خان النخیلة[٥٣].

واستمرّ هذا المنهج للشَّهید الصَّدر حتی انتصار الثورة الإسلامیة وبعده.

٧ـ إیجاد صلة محدودة مع أجهزة السلطة المحلِّیة لإنجاز المعاملات الروتینیة ذات العلاقة بالطَّلبة وغیرهم کما هو شأن المراجع، والانفتاح فی استقبالهم فی الدیوان فی بعض المناسبات.

خطوط عامَّة جدیدة فی تصوُّر الشَّهید الصَّدر (رض)

وقد توضّحت للشَّهید الصَّدر(رض)، فی هذه الآونة، مجموعة من القضایا الاستراتیجیة فی العمل السیاسی، إضافةً إلی النقاط السابقة منها:

١ـ إنّ منهج العمل السیاسی القائم علی فکرة «المرحلیَّة»، وبمعنی أن یقوم التَّحرُّک السِّیاسی علی أساس الفصل الکامل بین طبیعة مرحلة، ومرحلة أخری.. غیر سلیم، وأنّ التدرّج فی الدعوة والعمل إلی اللّه لا یعنی بالضرورة هذا التَّصوُّر للمرحلیة. وأنّ الصحیح فی منهج العمل المیدانی الفعلی هو الدمج بین العمل الثقافی والعمل السیاسی والتصدِّی للمواجهة، ولکن مع مراعاة التدرّج فی الطَّرح، والظروف الموضوعیة القائمة فعلاً، سواء علی صعید الأمَّة أو الحکم أو أجهزة المرجعیة وإمکاناتها. وبذلک أعطی الشهید الصدر «المرحلیة» معناها القرآنی الأصیل.

٢ـ إنّ المرجعیَّة الدینیَّة یجب أن تعتمد بصورة «أساسیة» علی تشکیلاتها الخاصة، التی یجب العنایة بها وتطویرها کماً وکیفاً، وهذه التشکیلات هی مؤسَّسات: الحوزة، والوکلاء، والمساجد،

والمؤسسات المرتبطة مباشرة بها، والصفوة المؤمنون الذين يلتفون حول هؤلاء العلماء ويشكّلون القاعدة العامة لهم.

٣ـ إنّ التَّنظيمات الخاصَّة يمكن أن يكون لها دور «مهم» فى العمل السياسى وفى إطار المرجعية ونشاطها العام، لا سيما فى بعض الأوساط أو بعض الأعمال والنشاطات، ولكن من خلال تحولها إلى مؤسسات تعبوية للمرجعية وتحركها السياسى ومواقفها المتحركة، وإلاّ فقد تصبح أجهزة معوِّقة للتحرك فى بعض المقاطع أو المواقف، وإنّ هذه التنظيمات يجب أن تخضع لإشراف المرجعية ورقابتها، وبهذا الصدد نجد الشَّهيد الصَّدر يقوم بتعيين بعض طلاَّبه مشرفين على بعض هذه التنظيمات الإسلامية[٥٤]، ويطالب بعضها الآخر بالالتزام بقراراته والانسجام معه.

وكانت معاناة الشَّهيد الصَّدر اللاَّحقة تؤكِّد هذه الحقيقة؛ حيث عاش حالة الإحباط التى شهدتها مرجعية الإمام الحكيم تجاه هذا الموضوع فى الأزمات، لا سيما عند سفره إلى لبنان لتعبئة الأمَّة سياسياً وإعلامياً لإسناد المرجعية فى محنتها. حيث كانت النتائج والملابسات توضح هذه المقولة بجانبيها: الإيجابى والسلبى[٥٥].

٤ـ إنّ قدرة المرجعية -بصورها عامة- بأجهزتها الصَّالحة على التعبئة السياسيَّة والجهاديَّة فى مواجهة القمع والأنظمة الفاسدة، أكبر من قدرة التنظيم الخاص. كما أنّ قدرتها على حماية نفسها وعلى المناورة أفضل، لأنّ المنهج الذى تتبعه المرجعية هو منهج اللاَّمركزية الأكثر قدرة على التعبئة والأكثر مرونة فى المواجهة والمناورة مع وجود الحماية الواسعة لها على مستوى التَّاريخ والأمَّة.

٥ـ الفصل بين أجهزة المرجعيَّة وأجهزة التنظيم الخاص حتى على مستوى الوكلاء، حتى أنَّه امتنع أن يمنح أحد كبار طلاَّبه وكالة عنه بعد أن أصرَّ هذا الأخ على البقاء فى الحزب لمصلحة كان

يعتقد بوجودها، بالرغم من طلب الشَّهيد الصَّدر منه الخروج من التنظيم الخاص، علماً بأنّ الشهيد كان يثق بتديُّنه وفضله. كما أنَّه لم يرشِّحه للقيادة النائبة لهذا السبب على ما أعتقد.

وقد اهتمَّ الشَّهيد الصَّدر بتدوين بعض أفكاره ونظريَّاته هذه إلى حدٍّ بعيد؛ وذلک من خلال كتابته لكرَّاس: «المرجعية الموضوعية» بعد مناقشته له فی المجلس الاستشاری وإرساله إلى المناطق المختلفة والطلب من بعض طلاَّبه[۵۶] القيام بشرحه إلى القواعد المؤمنة، كما أنّ رؤيته لذلک أصبحت أكثر وضوحاً من بعد فی مرحلة التَّطبيق.

كما كان يتحدَّث ببعض هذه الأفكار فی جلساته الخاصَّة إلى طلاَّبه ويناقش بعضها فی جلسة الشّوری.

المرحلة الجهادية

وبعد انتصار الثَّورة الإسلامية، أصبحت الحقائق والمفاهيم فی العمل السِّياسی التی كان قد توصَّل إليها الشَّهيد الصَّدر(رض) أكثر وضوحاً وواقعيةً، وبدأت بذلک مرحلة جديدة من العمل السياسی تؤكِّد المفاهيم والتصوُّرات السِّياسية السابقة نفسها؛ إذ من الواضح أنّ الثورة الإسلامية فی إيران اعتمدت فی تحرُّكها السياسی -بالأصل- على نظريَّة «المرجعيَّة الدِّينية» بالمعالم السابقة التی أشرنا إليه.

وكان للحوزة العلمية والوكلاء والمبلّغين والمساجد.

وكان التَّحرُّک الجماهيری العام مع تحرُّک «الحواريين» المؤمنين من وراء هذه المساجد، وحلقات التدريس العام للفقه والقرآن والمعرفة الإسلامية.

وكان تبنِّى مصالح الأمَّة الفعلية والمرحلية وطرحها سياسياً إلى جانب الطَّرح المفاهيمى والثقافى العام.

وكان الدُّخول فى الصِّراع مع السُّلطة والاستكبار العالمى إلى جانب البناء الروحى والأخلاقى والثقافى... كان لجميع هذه المفردات المساهمة الفعَّالة فى تحقيق التعبئة السياسيَّة والروحيَّة، ومن ثمَّ الوصول إلى النصر بإذن اللّه[٥٧].

ومن هنا كان تقييم الشَّهيد الصَّدر لهذه الثورة أنها حقَّقت الأهداف التى عمل من أجلها الأنبياء، ومن هنا كان هذا الذوبان منه فى الثورة وقيادتها الحكيمة.

وأصبح من الواضح، لدى الشَّهيد الصَّدر، ضرورة الانتقال من حالة «الانتظار للفرصة المواتية» لبدء المواجهة، إلى حالة «المواجهة الفعلية». وقد عبّر عن ذلك فى بعض الاجتماعات الخاصَّة للتداول والتشاور بما مضمونه: أنه من قال إنه سوف يبقى لنا شىء إذا انتظرنا الفرصة المناسبة، بعد أن كان العفالقة المجرمون جادِّين فى مسخ شخصية الإنسان المسلم فى العراق وتغيير كل المعالم الإسلامية وسحق المثل والقيم الربّانية، واستخدموا جميع الأساليب الفاسدة والخبيثة والوحشية لتحقيق أهدافهم!؟

كما أصبح واضحاً للشَّهيد الصَّدر أنّ الجهود التى كانت تبذل فى سبيل بناء التنظيم الخاص لو بذلت ووظّفت فى سبيل بناء الحوزة العلمية وتشكيلاتها الخاصة، لكانت النتائج أكبر بكثير من النتائج التى توصّلنا إليها طوال المدَّة السابقة كما صرّح بذلك.

كما أصبح من الواضح لديه أنَّه لا بدَّ من مضاعفة الجهد لملء جميع الفراغات الموجودة فى ساحة العمل التبليغى، وعلى صعيد المساجد ومراكز الهداية والتوجيه، وبأسرع وقت انطلاقاً بالعمل الجماهيرى باتّجاه الأهداف الإسلامية.

خطَّة العمل فى المرحلة الجهاديَّة

وقد بدأ الشَّهيد الصَّدر (رض) عمليَّة فحص وإحصاء وتقييم للمرحلة ومستلزماتها ومتطلَّباتها لتحقيق الأهداف الآنفة، فقام بالخطوات الآتية:

١ـ إرسال الوكلاء والمبلّغين إلى مختلف المناطق الخالية، وقد تمَّ إرسال عدد كبير من الطلبة لملء الفراغ.

٢ـ مطالبة الأمَّة بطرد علماء السوء أو الأدعياء منهم وكشفهم وملاحقتهم، وقد وقعت حوادث حاصرت فيها الأمَّة هؤلاء الأدعياء وأخرجتهم من مواقعهم.

٣ـ ضرورة طرح «المرجعيَّة الرَّشيدة» بشكل عام؛ حيث أصبح ذلك مطلباً ضرورياً واضحاً، وتوسَّعت بذلك قاعدة مرجعيَّته فى التقليد والولاء بدرجة كبيرة، ولا سيَّما فى صفوف الشباب.

٤ـ القيام بعمل ثقافى وروحى شامل فى أوساط الحوزة العلميَّة.

٥ـ التلاحم مع الثَّورة الإسلامية فى إيران. وكان من الإجراءات التى اتَّخذها فى هذا المجال التصدِّى لإصدار بيان فى تأييد الثورة الإسلامية، وتعطيل درسه أيَّام انتصارها، وتشجيع طلاَّبه على

الإعداد لتظاهرة تأييد للثورة فى النَّجف الأشرف. وقد خرجت بالفعل هذه التظاهرة، ولأوَّل مرَّة، وواجهت عملية مطاردة من السلطة العفلقية.

٦ـ قام، أيضاً، بتأسيس درس التفسير الموضوعى فى الأيَّام الأساسية للتدريس فى النَّجف وعلى حساب بعض حصص درس الفقه المهم[٥٨]؛ حيث كان درس التفسير هذا من الدروس المهمَّة التى لاقت إقبالاً عظيماً فى أوساط الحوزة، وتناول فيه موضوعاً حسَّاساً يرتبط بالتحليل التاريخى والاجتماعى النظرى للقضايا المعاصرة والملحَّة.

وعندما استشهد آية اللَّه المطهَّرى، وهو فى الوقت نفسه رئيس مجلس قيادة الثورة، أقام مجلس الفاتحة على روحه الطَّاهرة انسجاماً مع الثورة الإسلامية؛ حيث فسَّرت السلطة هذا الموقف بهذا التفسير، لأنَّه لم يقدم على هذا العمل غير الشَّهيد الصَّدر.

٧ـ قام، فى الوقت نفسه، بالتَّنسيق مع بعض قيادات العمل المنظَّم الخاص فى التحرُّك للمواجهة الجهادية من خلال وجهة نظره لموقع المرجعية والعمل المنظَّم الخاص؛ حيث تمَّت الموافقة على أن يسلّم العمل المنظَّم الخاص على مستوى العراق على الأقل بقيادة المرجعية، ويرتبط بقرارها السياسى العام[٥٩].

٨ـ قام، فى الوقت نفسه، بالتَّخطيط للتحرُّك الإعلامى والسِّياسى فى الخارج، وكتب رسالة فى هذا المجال[٦٠] تمثِّل رؤيته لهذا التحرُّك السياسى والإعلامى.

٩ـ وعلى أساس هذا التَّخطيط، أيضاً، قام بإرسال ممثِّل له إلى إيران لينطلق بالعمل الخارجى من هناك، وينسِّق مع قيادة الثورة الإسلامية، وهو سماحة السيِّد محمود الهاشمى.

١٠ـ أصدر توجيهه بتأسيس حركة التَّحرُّر الإسلامى فى لندن، وهى تضمُّ مجموعة من عناصر منظَّمة لأكثر من جهة إسلامية وعناصر مستقلَّة أيضاً، وبدأت تعمل وتمارس النشاط السياسى العام لأوَّل مرَّة فى الخارج وبشكل علنى من أجل طرح القضية على صعيد المجتمع الدولى[٦١].

١١ـ وكان قمّة التحرُّک السياسى العام فى الداخل هو أسبوع البيعة الذى قامت به جماهير ووفود وهيئات، بقيادة العلماء، من مناطق مختلفة من العراق، تتوافد فيه على النَّجف الأشرف لتعلن البيعة للشَّهيد الصَّدر والاستعداد للتَّضحية، واشترک فى هذه الوفود علماء وشباب وعناصر منظَّمة وجماهير مؤمنة عامَّة، وتجاوب مع هذا الأسبوع تنظيم حزب الدَّعوة الإسلامية مع بقيَّة المؤمنين الواعين؛ حيث كان يعبّر ذلک عن مظهر من مظاهر التنسيق وتطبيق الاتِّفاق آنف الذكر.

ردّ فعل النِّظام تجاه خطَّة الشَّهيد الصَّدر (ض)

وإزاء هذا التحرُّک فقد النظام أعصابه -بالرغم من أنّ تحرّک الشهيد الصدر كان سياسيَّاً وسلميَّاً- إلاّ أنّ النظام كان يرى أمامه التَّجربة الإسلامية فى إيران ونتائجها، لا سيَّما أنَّه أدرک التَّرابط العقدى والعناصر الثابتة بين هذا التحرُّک وتحرُّک الثورة الإسلامية فى إيران مضافاً إلى الطبيعة العدوانية والغرور الذى يتّصف به حزب العفالقة ومجموعة صدام.

واقترن أسبوع البيعة مع برقية الإمام الخمينى (قدس سره) إلى الشهيد الصدر (رض) التى يطلب فيها منه البقاء فى النجف؛ حيث بلغت مسامعه أنباء عزمه على الهجرة إلى الخارج[٦٢].

وعلى أثر ذلک، قام النِّظام باعتقال بعض أفراد الوفود ومطاردة بعضها الآخر، أو وضعهم تحت الرقابة، وطلب الشَّهيد الصَّدر -لامتصاص ردّ الفعل- من الوفود التوقُّف وأغلق بابه احتجاجاً على موقف السُّلطة. ولكن السُّلطة قامت على الفور باعتقال الشهيد الصدر فی ۱۶ رجب ۱۳۹۹ه.

وانفجر الوضع بتظاهرة فی النَّجف -بعد أن خرجت الشَّهيدة بنت الهدى تعلن عن اعتقال الشَّهيد الصَّدر وتستنهض الأمَّة -وأخرى فی مدينة الثورة وثالثة فی الكاظمية وأماكن أخرى من العراق، ووقعت مصادمات مع رجال الأمن، فأطلق سراح الشَّهيد الصَّدر فی اليوم الثانی، ثم وضع رهن المراقبة وتمَّ احتجازه فی بيته[۶۳].

وفی التَّحقيق، عند اعتقاله، طُلب منه التخلّی عن تأييده للثَّورة الإسلامية، وتعرّض للتهديد الشديد إذا استمر فی هذا الطريق.

وفی الوقت نفسه، تم إلقاء القبض على عدة آلاف من الأشخاص، وتعرَّضوا للتَّعذيب الوحشی أثناء التحقيق.

وفی هذه الأثناء، وبسبب هذه التطوُّرات والأحداث ولمواجهة الثَّورة الإسلامية والنهضة المحمَّدية فی العراق وإيران وتطبيق سياسة التَّصفية الشاملة والقبضة الحديدية والأرض المحروقة، حدثت تغييرات مهمة وأساسية سياسية فی أوساط النظام الحاكم؛ حيث أُزيح أحمد حسن البكر؛ وذلک من خلال الضغط عليه لتقديم الاستقالة من رئاسة الجمهورية، وتم تنصيب صدام مكانه، فاستهلَّ حكمه بإراقة الدماء بصورة وحشية، ثم تمَّت تصفية العناصر المعتدلة المحسوبة على البكر أو غير الموالية لصدام بتهمة التعاون مع الحكم فی سوريا للإطاحة بنظام صدام؛ حيث قُتل عدد كبير من قادة حزب البعث وسجن عدد آخر؛ وذلک ضمن سياسة القبضة الحديدية الجديدة والسيطرة الكاملة لصدام ومجموعته.

كما اتخذ قرار التعامل الوحشى ضد الإسلاميين فى العراق، وكانت النتائج الحكم بالإعدام بعد أيام قليلة وتنفيذه على أكثر من سبعين شخصاً، فيهم مجموعة كبيرة من العلماء البارزين فى ليلة النصف من شعبان ١٣٩٩هـ والحكم بالسّجن المؤبَّد على أكثر من مئتى شخص فيهم العلماء والمثقفون من مختلف أوساط الشعب العراقى.

وقد حاول النظام عدة مرات، فى مدة الاحتجاز، من خلال الحوار والوسطاء، أن يثنى الشَّهيد الصَّدر عن موقفه المؤيِّد للجمهورية الإسلامية، أو الكف عن مواصلة تنفيذ هذه الخطة.

ومارس، من أجل ذلك، مجموعة من الضُّغوط النفسية والبدنية والتهديد، بالإضافة إلى محاولات الإغراء والاستمالة، ولكنه بقى صامداً على موقفه، بل أذن بتصعيد الموقف السياسى والجهادى ضدّ النظام فى الداخل والخارج، بعد أن منع النظام الجمهور من الممارسة العادية للعمل السياسى وقام بعمليات القمع والإعدام.

وعلى أثر ذلك، قام بعض المؤمنين فى التنظيمات الخاصَّة وفى غيرها بتشكيل مجموعات جهادية فى الداخل، وأخذ جهاز الشَّهيد الصَّدر المرجعى يخطِّط لهذا العمل الجهادى بشكل واسع.

كما قام بعض طلاَّب الشَّهيد الصَّدر وأنصاره بتأسيس حركة المجاهدين العراقيين فى لبنان للقيام بأعمال جهادية ضدّ النظام.

وبذلك، دخل الشَّهيد الصَّدر المواجهة الجهادية المسلَّحة بعد أن بدأها النِّظام بقسوة وتصفيات بدنية، وأصبحت الشهادة ماثلة أمام عينيه بسبب ظروف هذه المواجهة.

التَّخطيط لما بعد الشَّهادة

وأخذ الشَّهيد الصَّدر(رض) يخطِّط لما بعد شهادته، وكانت هناک قضايا أساسية أمامه:

١ـ قضية القيادة النَّائبة التى يمكنها أن تنوب عنه، وهو فى الاحتجاز وتقوم بدورها بعده فى قيادة التحرُّک الأساسى. وقد رشّح أربعة أشخاص غير مرتبطين بالعمل المنظَّم الخاص، وكتب بذلک رسالة مغلَّفة للإمام الخمينى بهذا الترشيح، وكلَّفنى بالاحتفاظ بها للوقت المناسب، ولكنه سحب ترشيحه بعد ذلک[٦٤] وطلب إتلاف الرِّسالة بعد أن وصلته أخبار عن الوضع الخاص له فى إيران غير مشجّعة، وكذلک عن الموقف العام تجاه حركته وتقييمها[٦٥] ولا سيَّما من قبل بعض العناصر المتنفذة فى الأجهزة المسؤولة عن إسناد الحركات الإسلامية مثل مهدى هاشمى وغيره.

٢ـ قضيَّة تطوير خط الجهاد فى بناء الخط العسكرى الجهادى، وقد طلب منّى الخروج من العراق للقيام بهذا العمل، وكانت لدىَّ ملاحظات عرضتها عليه فتوقَّف عن الطلب فى حينه[٦٦].

٣ـ قضية تعبئة الشعب العراقى، بجميع فئاته وقطاعاته، سياسياً، ضد البعث العفلقى، وقد وجَّه نداءاته الثلاثة إلى الشعب والتى سجَّلها بصوته، وطلب أن تبثَّ وتنشر بعد شهادته مباشرة، ووضعها أمانة لدىّ حيث أرسلتها مع أوَّل رسول بعد شهادته[٦٧].

٤ـ قضية الوقوف إلى جانب الثورة الإسلامية وقيادتها الحكيمة والدولة المباركة التى كان يعدّها تجسيداً لحركة الأنبياء، وقد أكَّد ذلک فى رسائله الخاصَّة قبل تطوُّر الأحداث وكتبه، بعد ذلک، بدمه الزكى عندما أصرَّ على الاستمرار فى موقفه المساند لها حتى لو كان على حساب حياته الشريفة التى قدَّمها غاليةً فى سبيل الإسلام[٦٨].

٥ـ قضية الاهتمام بالشَّباب المؤمن المخلص المجاهد الذى كان ينتمى إلى التنظيمات الإسلامية كحزب الدَّعوة، أو غيرهم من أبناء الإسلام والذين أثبتوا فناءهم فى الإسلام وتعاليهم على جميع الانتماءات الأخرى غير الإسلام، وقدَّموا التضحيات فى سبيل القضية الإسلامية؛ حيث أوصى بهم خيراً لأنَّهم يمثِّلون القاعدة الإسلامية التى يمكن أن تستند إليها الثورة، وقد كان يدرك بوضوح الفرق بين موقفهم واستعدادهم للتضحية وموقف بعض العناصر القيادية المتردِّدة.

وقد أثبتت تجربة السنين الماضية فى الحرب العدوانية ضدّ الجمهورية الإسلامية كيف تحوّل هؤلاء الشباب، ومن سار فى خطّهم، إلى قوَّة جهادية ارتبطت بالولاية الشرعية وبالقيادة السياسية الدينية، ووظّفت قدراتها من أجل القضية، وأكَّدت انتماءها المطلق للإسلام قبل كلِّ شىء.

٦ـ الاهتمام بدور المرأة فى العمل الإسلامى وأهمِّية دورها المساند والمكمل لدور الرجل فى العملية التغييرية؛ حيث جسَّدت أخته الشهيدة بنت الهدى هذا الدَّور عملياً فى مدَّة الاعتقال والاحتجاز وفى التحرُّك السياسى قبل ذلك، ثم فى شهادتها العظيمة مع أخيها الشَّهيد.

وانتهت هذه المرحلة بشهادته، رضوان اللّه عليه، مع أخته الفاضلة العلوية بنت الهدى (رض) التى وقفت إلى جانبه فى جميع مسيرته، وانتهت حياتهما الطاهرة بالشهادة بعد إبلاغهما الرسالة. وكانت هذه النهاية العظيمة والمفخرة بعد حوالى سنة من الاحتجاز ومحاولات الاحتواء والتفاوض وعروض الحرِّية المشروطة. وبعد أن قام ـ النظام بإعدام كوكبات من الشباب المؤمن الذين قاموا بالعمليات الجهادية أو خطَّطوا لها أو تعاطفوا معها، بعد أن أصدر القانون المشؤوم الذى لا يعرف التاريخ الإسلامى له نظيراً، وذلك بقتل كلِّ من ينتمى إلى حزب الدَّعوة أو يروّج أفكاره وجعل له أثراً رجعياً وطبّقه على عشرات الآلاف من الناس، وفيهم الكثير ممَّن لم ينتمِ إلى حزب الدَّعوة، كما طبّقه على الشَّهيد الصَّدر نفسه.

خاتمة المطاف

ويمكن أن نستنتج، من هذا الاستعراض السريع للأحداث والمواقف والنشاطات، فى هذه المرحلة، الأبعاد النظرية التى كان يؤمن بها الشَّهيد الصَّدر فى العمل الإسلامى، وهى:

١ـ إنّ المرجعيَّة الدِّينية السِّياسية المتصدِّية والرشيدة هى القيادة السِّياسية الشَّرعية والفعلية لمجمل العمل السياسى والجهادى فى الساحة الإسلامية.

٢ـ إنّ المرجعية، وبتشكيلاتها ونشاطاتها العامة، هى الإطار العام الصالح للعمل السياسى والجهادى، كما هى محور الولاء فيه.

٣ـ إنّ المجتهد العادل الجامع لشرائط الدِّراية والخبرة السياسيَّة والاجتماعيَّة والتصدِّى يمكن أن يتولَّى «القيادة السِّياسية النائبة» عن المرجعية الدِّينية السِّياسية العامة عندما لا تتمكَّن القيام بدورها المباشر[٦٩]، وذلک من خلال التكامل مع العمل المرجعى التقليدى.

٤ـ إنّ العمل المنظّم الخاص (حزب أو حركة أو منظمة أو جمعية) هو مؤسسة يمكن أن يكون لها دور هام[٧٠] ومتفاوت المستوى ضمن الإطار العام للمرجعيَّة السِّياسيَّة وتحت قيادتها وإشرافه.

٥ـ اللاَّمركزيَّة فى العمل السياسى على مستوى التَّنفيذ والتعدُّدية على مستوى التشكيلات المرجعيَّة والمؤسَّسات وغيرها مع المركزية فى القيادة السياسية للمرجعية، أى فى تشخيص الخطوط السياسية العامة، والمواقف الأساسية فى التغيير والمواجهة، والإشراف على عموم التحرُّک الإسلامى والأموال والحقوق الشرعية، والتخطيط العام.

۶ـ القيادة المرجعية السياسية لا بدَّ من أن تتوافر فيها الشروط الأساسية، وهى: «الاجتهاد» و «العدالة» و «الكفاءة السياسية» و «الكفاءة الشخصية» و «التصدِّى» لقيادة الأمَّة ولقضاياه.

۷ـ تجاوز فكرة «المرحلية» فى العمل الثقافى والسياسى والجهادى، والإيمان بفكرة التدرُّج فى العمل، مع الإيمان بالتداخل بين العمل الثقافى والمواقف السياسية. ونلاحظ أنّ الشَّهيد الصَّدر انتقل فى مدَّة قصيرة من العمل الثقافى إلى المواجهة السياسية ثم إلى المواجهة الجهادية.

۸ـ إن انتصار الثورة الإسلامية يمثل منعطفاً أساسياً ومهماً فى المسيرة الإسلامية، فقد قلبت الثّورة الكثير من الموازين والتصوُّرات تجاه العمل الإسلامى، ووضعت المسلمين أمام مسؤوليات جديدة تهون إزاءها التضحية الكبيرة والفداء العظيم[۷۱]، وتفرض المزيد من التصدِّى والالتحام معها فى موقف واحد أمام قوى الاستكبار العالمى.

۹ـ أهميَّة الوحدة بين المسلمين وتجاوز الخلافات المذهبية والقومية والفئوية فى مثل هذه المواجهات الشاملة.

۱۰ـ ضرورة التَّركيز فى الطرح على القضايا الأساسية والمصيرية للأمَّة وحقوقها الشَّرعية والتعامل مع القضايا التى تعيشها الأمة أو تعانيها فعلاً بشكل واقعى وميدانى.

۱۱ـ الانفتاح على قطاعات الأمَّة وجمهورها فى القضايا المختلفة والتخاطب معها بشكل مباشر والاعتماد على اللّه تعالى وعلى قدرة الشعب فى التغيير، ولا سيما قطاع الشباب والمرأة.

١٢ـ أهمية العناية البالغة بالقاعدة الإيمانية العامة، وخصوصاً الطّاقات (الشّابة) المستعدَّة دائماً للتضحية والفداء، وكذلک أهمية دور «المرأة» و «النُّخبة» الإسلامية فى العمل التعبوى.

السيِّد محمَّد باقر الحكيم[١]

مجلّة المنهاج / ١٧

[١] رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق وأحد خرّيجى مدرسة الشهيد الصدر البارزين. والأمين العام لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

[٢] كتب الشَّهيد الصَّدر(رض) هذه الأسس فى بداية تأسيس حزب الدَّعوة الإسلامية فى أوائل سنة ١٣٧٨هـ أواخر سنة ١٩٥٨م، ثم شرحها، وأصبحت مادَّة ثقافية تدرَّس فى حلقات الحزب، ولم تنشر هذه المادة عن الشَّهيد الصَّدر، لأنَّه عدل عن الفكرة الأساسية التى تقوم عليها أسس الدولة الإسلامية، وهى فكرة تعيين الولاية من خلال الشورى فى الحكم الإسلامى، كما سوف نشير إلى ذلک.

[٣] يذكر مصدر الحديث مع الإشارة إلى موضع بحثه فى الكرَّاسين.

[۴] إنّ هذه الدراسة الإجمالية يمكن أن تكون أساساً لبحث واسع حول أفكار الشَّهيد الصَّدر فى هذا المجال، ولعلّ بعض الأخوة الأعزاء، من طلاب الشهيد الصدر(رض)، أو مريديه، تتوافر لهم الفرصة الكافية لتناول هذا البحث.

[۵] لقد طلب منّى الشَّهيد الصَّدر(رض)، قبل وفاته وشهادته، أن أكتب عن حياته، ولم أوفق إلى ذلک حتى الآن بالرغم من أنى وظَّفت «بعض الطاقات» لذلک، وتحدثت عن الشَّهيد الصَّدر فى كثير من المجالات، وهذه الكتابة وغيرها مثل التفسير عند الشهيد الصدر، أو بعض رؤاه السياسية والفكرية حول المرجعية والقيادة تأتى إسهاماً جزئيّاً فى هذا المجال.

[۶] دليل الحسبة هو دليل يستند إليه الفقهاء فى الحالات والموارد التى لا يثبت فيها دليل خاص على الولاية، سواء كانت فى الشؤون العامة للأمة كولاية الحكم وإدارة شؤون الأمة أم فى تعيين المواقف العامة لها أم الخاصة كولاية الأوقاف والأيتام أو القاصرين.. وفى حالة لا يمكن أن تترک فيها الأمة أو المورد من دون ولى؛ حيث ثبت فى الشرع اهتمام الشارع بها بشكل يؤدِّى إلى القطع بضرورة وجود الولى لها وعدم جواز إهمالها، مثل حفظ النظام أو الدفاع عن العقيدة الإسلامية أو حفظ أموال القاصرين. وعندئذٍ يعمد الفقهاء إلى انتخاب الولى الذى يجمع أفضل المواصفات، وهو المجتهد العادل الجامع للشرائط، وعند فقدانه يتم الانتقال إلى الفرد الأقل، إلى أن يصل إلى عدول المؤمنين أو المتصدِّين للولاية إن لم يتصدَّ لها أحد.

[۷] شرح أسس الدولة الإسلامية الذى كتبه الشهيد الصدر يقوم على قاعدة الشورى وانطلاقاً من الاستدلال بها. وقد تناولنا هذا الموضوع فى كتابنا: «الحكم الإسلامى بين النظرية والتطبيق».

[۸] مقالة منشورة فى أدبيَّات حزب الدعوة الإسلامية منسوبة إلى الشَّهيد الصَّدر يشير فيها إلى هذه الفكرة، على أنه اعتمدنا بالأصل على ما كان يذكره(قده) فى أحاديثه حول هذا الموضوع.

[٩] هناک بحث مستقلّ لنا حول هذا الموضوع لعلّنا نوفق لطبعه، وقد تمَّ نشر بعض فصوله ومعالمه فی جریدة «لواء الصَّدر» تحت عنوان: «النظریة الإسلامیة فی التحرک السیاسی». وهنا لا بد من أن نشیر إلی أنّ المقصود من نظریة المرجعیة هو نظریة «الولایة» أو «الإمامة».

[١٠] الحسبة مصطلح فقهی یراد منه ضرورة ووجوب التصدِّی للقیام ببعض الأعمال التی یقطع بأن الشارع المقدَّس لا یرضی بإهمالها وترکها علی حالها، مثل إدارة شؤون الأیتام والأوقاف التی لا ولی لها، وکذلک إقامة النظام للحیاة الاجتماعیة وتنفیذ الواجبات العامة کما أشرنا سابقاً.

[١١] کان لخروج الشهید الصدر من التنظیم سبب آخر مضافاً إلی هذا الطلب سوف نشیر إلیه. (یذکر هنا النَّص حول طلب الإمام الحکیم الموجود فی رسائل الشهید الصدر).

[١٢] لقد کتب الشَّهید الصَّدر رسالة إلیَّ، فی محرم ١٣٨٠هـ حیث کنت حینذاک فی لبنان، أشار فیها إلی هذا الأمر -لا أزال محتفظاً بها- نذکر مقتطفات منها: «... وقعت منذ أسبوعین، أو قریب من ذلک، فی مشکلة؛ وذلک أثناء مراجعتی أسس الأحکام الشرعیة وبعدها، وحاصل المشکلة التوقف فی آیة وأمرهم شوری بینهمالتی هی أهم تلک الأسس وبدونها لا یمکن ـ العمل فی سبیل تلک الأسس مطلقاً، کما کنت أکرر ذلک فی النجف مراراً، ومنشأ التوقف وجهان أو وجوه أهمها أنی لم أستطع أن أجیب علی الاعتراض الذی اعترضته أنت علی الاستدلال بالآیة وإن کنت أجبت عنه فی حینه، ولکن الجواب یبدو لی الآن خطأ...». «... وإذا تم الإشکال فإنّ الموقف الشرعی لنا سوف یتغیّر بصورة أساسیة، وإنَّ لحظات تمر علیَّ فی هذه الأثناء وأنا أشعر بمدی ضرورة ظهور الفرج وقیام المهدی المنتظر (صلوات اللّه علیه)، ولا زلت أتوسّل إلی اللّه تعالی أن یعرّفنی علی حقیقة الموضوع ویوفقنی إلی حل الإشکال، ولکنی من جهة أخری أخشی وأخاف کل الخوف من أن تکون رغبتی النفسیة فی دفع الإشکال وتصحیح مدعیاتنا الأولیة هی التی تدفعنی إلی محاولة ذلک. وعلی کل حال فإنّ حالتی النفسیة لأجل هذا مضطربة وقلقة غایة القلق،

وما الاعتصام إلا باللّه، وإنى أكتب هذه المسألة إليک، أيها الحبيب المفدى، لمشاركتى التأمّل فيها وتعيين موقفنا منها بصورة أساسية...».

[١٣] اقترن هذا الشک فى دلالة آية الشورى مع طلب الإمام الحكيم(قده) منه الانسحاب من الحزب فى الحادثة المعروفة التى أشرت إليها فى بعض الكتابات، وكان السبب الشرعى الواقعى للانسحاب هو الشک فى صحة العمل الحزبى كما أشرنا، بالإضافة إلى المصلحة التى كان قد شخَّصها الإمام الحكيم وكان يرى الشَّهيد الصَّدر نفسه ملزماً روحياً وأدبياً بمراعاتها. وقد دوّن ذلک الشَّهيد الصَّدر فى رسائله الخاصة التى أشرت إليها فى الهامش السابق.

[١۴] يمكن الرجوع، فى هذا التصور، إلى الكرَّاس المطبوع بهذا الشأن، كما أنه يوجد تلخيص لأفكار الشَّهيد الصَّدر حول الموضوع كتبه الحجة السيد كاظم الحائرى عندما كان يطرح الشَّهيد الصَّدر هذا الموضوع للمناقشة، وعلّقت عليه ثم علّق عليه الشهيد الصدر بعد ذلک، وفى هذا التلخيص توضيح وتفصيل لبعض الأفكار المطروحة فى الكرَّاس المطبوع.

[١۵] يمكن التعرّف إلى معالم هذه النظرية من خلال مراجعة كراس «المرجعية الموضوعية» وكراس «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء» وكراس «دستور الجمهورية الإسلامية» للشَّهيد الصَّدر (رض).

[١۶] بل نعتقد أنه لا يصح ذلک، حيث يؤدّى ـ ذلک إلى أن تأخذ الحركة الإسلامية (التنظيم الخاص) فواقعياً أو ادعاءف موقع القيادة الإسلامية وإطارها العام فى العمل الإسلامى.

[۱۷] للاطّلاع على معالم هذه الفكرة وخلفياتها، راجع كتاب «الإسلام يقود الحياة» وكرّاس الإنسان وشهادة الأنبياء»، ص ۱۶۷ ـ ۱۷۲، وأيضاً كراس «العلاقة بين الشورى والولاية» للكاتب، ص ۱۰ ـ ۱۴.

[۱۸] كانت اللجنة المشرفة على جماعة العلماء فى النجف الأشرف تتألف من: ۱ ـ آية اللّه المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين (خال الشهيد الصدر). ۲ آية اللّه المرحوم الشيخ حسين الهمدان ـ ى – من كبار علماء النجف. ۳ ـ آية اللّه المرحوم الشيخ خضر الدجيلى ـ من كبار علماء النجف. وهم يشكلون هيئة الإشراف.أما باقى أعضاء الجماعة فهم: ۱ ـ آية اللّه المرحوم السيد محمد تقى بحر العلوم.۲ ـ آية اللّه المرحوم السيد موسى بحر العلوم. ۳ ـ آية اللّه المرحوم السيد محمد باقر الشخص. ۴ ـ آية اللّه المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر. ۵ ـ آية اللّه السيد مرتضى الخلخالى. ۶ ـ آية اللّه المرحوم الشيخ محمد طاهر آل شيخ راضى. ۷ ـ آية اللّه الشيخ محمد جواد آل شيخ راضى. ۸ ـ آية اللّه المرحوم السيد محمد صادق الصدر. ۹ ـ آية اللّه المرحوم الشيخ محمد حسن الجوهرى. ۱۰ ـ آية اللّه المرحوم السيد إسماعيل الصدر. ۱۱ ـ آية اللّه الشيخ محمد تقى الإيروانى.

[۱۹] لقد كان لهذه التعددية فى الاتجاهات والأهداف فى أوضاع الجماعة من ناحية، وتمركز المرجعية الدينية فى الإمام الحكيم من ناحية أخرى، والضغوط السياسية الخارجية والداخلية على الجماعة من ناحية ثالثة، أثر بالغ فى توقف الجماعة عن فعاليتها السياسية الجماعية، لكنها بقيت فكرة مقبولة فى الوسط الحوزوى.

[۲۰] طبعاً لا يعنى هذا الاستعراض لجماعة العلماء هو أنّ الشهيد الصدر (رض) كان وراء تأسيسها، بل كان العلماء والمرجعية وراء تأسيسها، وإنما نقصد بذلك أنّ التنظيم «الناشى» كان يؤمن بضرورة هذه الواجهة وهذه المفردة فى تلك المرحلة واهتمام «الشهيد» بها، وكذلك التنظيم كان ينطلق من هذا التصور. وإلاّ فإنّ فى جماعة العلماء من كان لا يؤمن بالتنظيم وكان يحذر ويحتاط

من إلصاق هذه التهمة بالجماعة ويسعى لإيجاد مشاكل فى وجهه، كما أنها كانت تحظى بدعم وتأييد قطاعات كبيرة جداً فى الأمة أوسع من التنظيم الذى بدأ تأسيسه فى أجواء تأسيس جماعة العلماء ومقترناً معه تقريباً. كما أنّ تأسيس الجماعة كان بمبادرة من الإمام الحكيم وبعض العلماء وأجهزة المرجعية حينذاک.

[٢١] كان حجة الإسلام السيد محمد مهدى الحكيم وأخوه السيد محمد باقر الحكيم (كاتب السطور) يرتبطان بالشهيد الصدر بعدة روابط روحية وعملية قبل الإيمان بالعمل التنظيمى الخاص. ولكن كان منها هذا الارتباط، وأشرنا إلى بعضها فى الهامش الأسبق.

[٢٢] لقد كان تأسيس جماعة العلماء فى النجف الأشرف قبل تأسيس جماعة العلماء المجاهدين فى إيران، ويمكن أن نقول إنّ هذا الأنموذج كان له تأثير على طبيعة التحرک فى إيران أيضاً، بل يمكن أن نقول إنَّ مجمل التحرک فى حوزة النجف بقيادة الإمام الحكيم كان متقدماً على مجمل التحرک فى حوزة قم، وكان له تأثير بالغ على الأوضاع هناک خصوصاً بعد وفاة آية اللّه العظمى السيد البروجردى (رض). ويمكن أن نذكر، فى هذا الصدد، عدة قضايا: منها قضية الفتوى المعروفة ضد الحزب الشيوعى ـ والتى كان لها تأثير بالغ فى الأوساط الشعبية والرسمية -مع أنّ الحزب الشيوعى فى إيران كان نشيط. وكذلک الموقف من الاعتراف بإسرائيل؛ حيث بادرت المرجعية فى النجف لانتقاد موقف الشاه من إسرائيل علناً، ولم يتم ذلک من قبل المرجعية فى قم. وقضية تصدّى المرجعية لطرح الإسلام والمطالبة بتطبيق أحكامه، وقضية موقف التأييد للعمل الفدائى الفلسطينى وموقف التأييد للحركة الإسلامية المنظمة... إلخ.

[٢٣] ذكرناها فى الكراس الذى تحدثنا فيه عن جماعة العلماء.

[۲۴] كانت جماعة علماء بغداد والكاظمية تتألف من الآيات وحجج الإسلام التالية أسماءهم (تم الحصول على هذه الأسماء استناداً إلى بيانات ومذكّرات الجماعة التى صدرت فى الستينات ونشرتها مجلّة الإيمان آنذاک). وقد كانت مجموعة منهم تمثل اللجنة التنفيذية أو المركزية لهذه الجماعة، وفى مقدمتهم السيد مرتضى العسكرى والسيد مهدى الحكيم والشيخ على الصغير والسيد محمد الحيدرى الخلانى والسيد هادى الحكيم والشيخ محمد حسن آل ياسين. ومجموعة أخرى كان لها دور المساند، ويمثل الجمعية العامة للجماعة:١ ـ السيد إسماعيل الصدر. ٢ ـ السيد مرتضى العسكرى. ٣ ـ السيد محمد مهدى الحكيم. ۴ ـ السيد أحمد الموسوى الهندى.۵ـ الشيخ جعفر الساعدى. ۶ ـ السيد جعفر شبر ـ الكرادة الشرقية.۷ ـ السيد حسن الحيدرى. ۸ ـ السيد حسين العلاق ـ الثورة. ۹ ـ السيد صادق السيد جواد الموسوى. ۱۰ ـ السيد صادق الموسوى الهندى۱۱ ـ السيد عباس الحيدرى ـ الكاظمية. ۱۲ـ السيد عبد المطلب الحيدرى ـ الكرادة.۱۳ ـ الشيخ عبد الحسين الخالصى ـ الكاظمية.۱۴ ـ السيد على الحيدرى ـ الشيخ بشار۱۵ ـ الشيخ على الصغير ـ العطيفية.۱۶ ـ السيد محسن الموسوى.۱۷ ـ السيد محمد الحيدرى (الخلانى) ـ الكرادة وجامع الخلانى. ۱۸ ـ الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ الكاظمية.۱۹ـ الشيخ محمد حيدر ـ بغداد الجديدة.۲۰ ـ الشيخ محمد الشيخ صادق الخالصى ـ الكاظمية۲۱ ـ السيد محمد طاهر الموسوى – الكريعات.۲۲ـ السيد محمد على الأعرجى – الكريعات.۲۳ـ الشيخ موسى السودانى – الحرية.۲۴ـ السيد مهدى الصدر ـ الكاظمية.۲۵ ـ الشيخ مهدى النمدى – الكاظمية.۲۶ـ الشيخ نجم الدين العسكرى – البياع.۲۷ ـ السيد هاشم الحيدرى – الكاظمية.۲۸ـ السيد هادى الحكيم ـ اسكانر غربى بغداد.۲۹ ـ السيد صادق الخلخالى. ۳۰ ـ السيد محمد طاهر الحيدرى ـ جامع المصلوب۳۱ـ السيد على نقى الحيدرى – الكسرة. ۳۲ ـ السيد محمد هادى الصدر ـ الكاظمية.۳۳ ـ الشيخ هادى الشيخ جعفر الساعدى. ۳۴ ـ الشيخ كاظم العظيمى – الثورة.۳۵ ـ الشيخ جواد الظالمى – البياع۳۶ ـ السيد عبد الرزاق الموسوى. ۳۷ ـ السيد على العلوى. كما أنّ هناک أسماء أخرى كانت تشترک فى مجمل نشاطاتها مثل الشيخ عارف البصرى والسيد عبد الرحيم الشوكى.

[٢٥] اتبع الشيوعيون هذه الطريقة الهمجية فى التعامل مع المعارضين السياسيين فى الأيام الأولى لحكم عبد الكريم قاسم، وخصوصاً فى الحوادث التى جرت بعد فشل محاولة «الشواف» أحد الضباط العراقيين بالتمرد على حكم عبد الكريم قاسم فى القاعدة العسكرية فى الموصل أوائل سنة ١٩٥٩م فى أواخر شعبان ١٣٧٨هـ وقد توقف نشاط جماعة العلماء بسبب هذه الحوادث بشكل عام.

[٢٦] لقد أصدر الإمام الحكيم فتواه المعروفة حول الشيوعيين؛ حيث هزم الحزب الشيوعى فى الشارع العراقى وفى غيره بعد ذلک بسبب هذه الفتوى. وقد كان لها أصداء واسعة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وخصوصاً فى أوساط أتباع أهل البيت(عليهم السلام) واعتبرت حصانة مهمَّة لهم فى هذا المجال؛ حيث كان يتعرض العالم الإسلامى، ولا سيما المستضعفين منهم، إلى تأثير واسع لهذا التيار اليسارى الذى كان يعيش فى قمة صعوده السياسى وفى أوج قدرته العلمية والسياسية والثقافية، كما كان الاستكبار الغربى يعيش حالة المقت من الأوساط المسلمة بسبب عهود الاستعمار والاستغلال وقضايا العدوان ومنها قضية فلسطين، وقد صدرت فى أعقاب هذه الفتوى فتاوى للعلماء والمراجع فى النجف الأشرف وكتب ومنشورات تؤيد هذا الموقف البطولى الرائع، وتشرحه وتبيِّن خلفيته الفكرية والثقافية والسياسية، ولا يزال هذا الموقف هو أحد المواقف المهمة الجهادية الإسلامية الذى تذكره الأوساط العلمية الدينية والإسلامية للإمام الحكيم بالتقدير والاهتمام.

[٢٧] هناک بحث مستقل للكاتب حول موقف الشَّهيد الصَّدر من المرجعية لا بدَّ من مراجعته لإكمال الصُّورة حول موقفه من المرجعية ورؤيته لها.

[٢٨] هناک رسالة خاصة موجودة لدى الكاتب يذكر فيها الشهيد الصدر هذين المسوِّغين، وقد أشرت إلى جانب من نصِّها فى الحديث عن المسار النظرى.

[٢٩] يوجد حديث مستقل عن هذا الموقف الجليل للشَّهيد الصَّدر نذكره فى المواقف.

[٣٠] كان الوسط الحزبى يعبِّر عن جميع العلماء غير الحزبيين بأنهم غير واعين لأنّ مفهوم الوعى كان يعنى الإيمان بالعمل الحزبى والارتباط به. كان الوسط الحزبى يعبِّر عن جميع العلماء غير الحزبيين بأنهم غير واعين لأنّ مفهوم الوعى كان يعنى الإيمان بالعمل الحزبى والارتباط به.

[٣١] كانت بعض أوساط العمل الحزبى تعمل فى مجال هذه النشاطات باعتبار ذلک فرصةً للكسب الحزبى، وأحياناً وسيلةً لنشر الوعى الثقافى فى الأمَّة، ولا تؤمن بأن هذه النشاطات أساسية ومركزية، وخصوصاً ذات الطابع السياسى منها. كما أنه كانت توجد بعض المبادرات العامة للعمل الحزبى مثل مواكب الطلبة، ولكن الهدف منها لم يكن التعبئة السياسية بقدر ما كانت تستهدف إيجاد البديل الثقافى فى مجال الشعائر الحسينية، وهو مضمون ثقافى.

[٣٢] لقد تجاوبت أوساط الحزب وقواعده مع حركة المرجعية فى كثير من الأحيان، لأنها كانت تمثل عناصر مؤمنة ومرتبطة بالمرجعية فى التقليد والمشاعر الروحية وتتفاعل مع الأحداث بشكل طبيعى من خلال حركة المرجعية، وعندما نتحدث عن الحزب هنا نقصد القرار السياسى الذى كان يصدر عن القيادة.

[٣٣] راجع المذكِّرة.

[۳۴] حيث طلبت من أحد أبرز قادة التنظيم الخاص.. شخصياً إصدار منشور يتضمَّن على الأقل «دعاء الفرج» لإشعار الأمة بالمحنة، ووعد بذلك، ولكن لم ينفذ الوعد بسبب هذا الموقف، ولعلَّه كان يرى شخصياً صحة إصدار المنشور، واللّه أعلم.

[۳۵] والعجيب أنّ بعض الحزبيين حاول بعد وفاة الإمام الحكيم تسويغ هذا الموقف بأنّ الإمام الحكيم طلب منهم عدم القيام بهذا العمل وعدم التحرك للاحتجاج، مع أنّ الإمام الحكيم رحّب فى ـ تلك الأحداث بتحرك طلاب العلوم الدينية الذين تظاهروا وتعرضوا للقمع، واستمرَّ هذا الموقف تجاه تحرك العشائر حيث استقبل وفداً من عشائر العباسية ومندوباً من مدينة السماوة وتحدَّثت إليهم شخصياً. ومع أنّ سفر الإمام الحكيم إلى بغداد والكاظمية له، بحدّ ذاته، دلالات واضحة على تصديه المباشر والعلنى إلاّ ـ ان الخوف لدى الناس من ناحية، وعدم وجود جهاز منظم لتعبئة الناس وتوجيههم من ناحية أخرى، وموقف قيادة الحزب من ناحية ثالثة، والتخلف فى الوعى لدى بعض الأوساط من ناحية رابعة كانت أسباباً فى ظهور الأمة بمظهر التخاذل.

[۳۶] لقد قامت عشائر بنى تميم فى الكاظمية، وكذلك العشائر فى المشخاب والقادسية والديوانية والصليجية وف«أبو صخير» والحيرة وغيرها، بتظاهرات ومسيرات واستعراضات ضخمة لتأييد المرجعية حتى قتل «عبد السلام عارف» فى الحادث المعروف، وهو سقوط الطائرة فى منطقة النشوة قرب البصرة.

[۳۷] لقد كان لهذا الاختلاط والإيهام والإيحاء آثار سلبية على الشّهيد الصَّدر ومرجعيته، ولا سيما فى أوساط الحوزة العلمية؛ حيث كان يواجه الشهيد الصدر بتحفظ عام فى أوساط الحوزة المتدينة والمؤمنة بالموقع المتميز للحوزة والمرجعية، وكان يستغل ذلك بعض المنافسين أو الحاسدين أو الحاقدين على العمل الإسلامى والسياسى، الأمر الذى أدَّى إلى مضاعفات كبيرة انتبه إليها الشَّهيد الصَّدر أخيراً واتَّخذ عدة احتياطات لتداركها كما سوف أشير قريباً.

[٣٨] الولايۀ المطلقۀ يراد بها الولايۀ التى يدلُّ عليها نصّ خاصّ له إطلاق ولو نسبى فى دلالته عليها فى مقابل القول الآخر بالولايۀ بدليل الحسبۀ؛ حيث يقتصر فيها على القدر اللازم، وإلا فإن الولايۀ المطلقۀ فيها تقييد وتفصيل بين المجتهدين أنفسهم أيضاً.

[٣٩] لقد كان «على رضا» شيعياً وكردياً فيلياً يعمل فى العلاقات العامۀ لمجلس قيادۀ الثورۀ، وهو اسم لمؤسسۀ المخابرات العراقيۀ فى بدايۀ تأسيسها، وكان المسؤول عنها صدام، ثم تم إعدام «على رضا» بعد ذلک ضمن الإعدامات التى قام بها البعثيون فى صفوفهم بعد ما يسمَّى بمؤامرۀ «ناظم كزار» مدير الأمن العام، وهى تصفيات طالت أكثر العناصر المتنفذۀ الشيعيۀ فى الحزب، وكذلک الخط السامرائى ـ الذى كان يقوده عبد الخالق السامرائىف المنافس لصدام.

[٤٠] لعلّ هذه البرقيۀ هى آخر عمل قامت به الحوزۀ العلميۀ فى النجف بشكل علنى وواضح تجاه حزب البعث حتى كتابۀ هذه السطور.

[٤١] انتهت انتفاضۀ صفر ٩٧هـ التى استمرَّت أربعۀ أيام إلى اعتقال أكثر من عشرۀ آلاف شخصٍ من الجماهير المؤمنۀ وتعذيبهم وإعدام أكثر من عشرۀ أشخاص والحكم بالسجن المؤبَّد على ستۀ عشر شخصاً، كان من ضمنهم كاتب هذه السطور، فى مهزلۀ لم يعرف لها التاريخ الحديث للعراق مثيلاً، وذلک بعد أن تدخلت القوات الجويۀ والبريۀ، والقوات المدرَّعۀ فى قمع الانتفاضۀ، وقد كانت لهذه الانتفاضۀ أصداء سياسيۀ واسعۀ فى العراق وخارجه، وحاول النظام أن يتَّهم سوريا والكويت بها على عادته فى نسبۀ الأحداث الداخليۀ إلى العامل الخارجى، ولم ينسب الانتفاضۀ إلى إيران لأنه كان قد دخل فى صلح مع حكومۀ الشاه، وكان يخاف منها خوفاً شديداً.

[۴۲] لقد أدخل الشّهيد الصَّدر المستشفى فى النجف قبل مجىء رجال الأمن إلى بيته نتيجة لعارض مفاجى بسبب تناوله لبعض الحبوب التى كان يستعملها ضد ارتفاع ضغط الدم وبكمية أكبر من اللزوم؛ حيث انخفض عنده الضغط بدرجة خطيرة وحاول رجال الأمن اعتقاله فى المستشفى إلاّ أنّ بعض الأطباء -ومنهم الدكتور موسى الأسدى الذى كان مختصاً بأمراض القلب ـ كان لهم موقف رافض ومشرِّف فى هذا المجال، ولذا تم نقله إلى مستشفى الفرات الأوسط فى الكوفة رهن الاعتقال، وهو فى حالة إغماء حتى اليوم التالى، وقد حاول رجال الأمن أثناء التحقيق معى أن يفسِّروا هذا الحادث بأنه محاولة للانتحار.

[۴۳] لقد قام الشيخ آل ياسين وجماعة من العلماء والطلبة بزيارة الشهيد الصدر فى المستشفى صباحاً؛ حيث مُنِع الدخول عليه، الأمر الذى أدّى إلى تجمهر عدد كبير من الطلبة والناس ثم تم اقتحام أبواب المستشفى ووقف رجال الأمن فى حيرة من أمرهم؛ حيث تمَّت الزيارة بسلام، ثم أرجع الشهيد الصدر إلى مستشفى النجف بعد الظهر عندما رفع الاعتقال عنه.

[۴۴] لقد تمَّ نقلى، من بين جميع المعتقلين تلك الليلة، إلى بغداد فوراً، وتعرّضت للتعذيب حتى طلوع الشمس تقريباً وبأساليب مختلفة، وكان ـ الاتهام الرئيسى الذى يوجِّه إلىَّ فى التعذيب ويتم الضغط باتِّجاهه هو الانتماء إلى تنظيم سرّى هو حزب الدعوة الإسلامية والطلب بالاعتراف به وأنّ قائده هو الشهيد الصدر، بالإضافة إلى مقدار وافر من السب والشتم للعلماء والدين والإسلام والقذف بالطائفية على عادة الأنظمة التى توالت على حكم العراق باتهام كل من يطالب بحقوقه أو المساواة بين المسلمين بالطائفية. وتم بعد الظهر إطلاق سراحى لأسباب لا أعرفها، ولعلّ أهمها الخوف من تطوّر رد الفعل الجماهيرى، وإن كنت قد توسَّلت بالإمام الكاظم(عليه السلام) ليشفع للَّه تعالى بالفرج عنّى، وعندما طلب منّى الخروج بعد الظهر والاعتذار عمّا حدث فى الليل بعدما شاهد مدير الشعبة آثار التعذيب والورم فى اليدين والرجلين، أصررت على عدم الخروج حتى يتم رفع الاعتقال عن الشَّهيد الصَّدر، الذى كان المجرمون فى أثناء التعذيب يكيلون له التهم والسباب، ويدّعون أنه

حاول الانتحار للتخلّص من نتائج التحقيق، ولم أخرج حتى تم الاتصال تلفونياً بالنجف وأبلغت برفع الاعتقال عن الشَّهيد الصَّدر (رض)

[۴۵] فى الحوزة العلمية تقسّم الدراسة إلى مستويات ثلاثة: أ ـ المقدمات، وهى دراسة العلوم المساعدة فى الاستنباط، مثل العلوم العربية والمنطق والكلام وغيرها، وكذلک المعلومات الأولية الفقهية. ب ـ السطح، وهو دراسة النصوص الفقهية والأصولية المعقَّدة نسبياً وذات الطبيعة الاستدلالية. ج ـ – الخارج، وهو الدراسة المفتوحة للفقه والأصول ذات الطبيعة الاستدلالية والتى يتولى الأستاذ تهيئة الموضوع وطرحه للاستدلال والمناقشة والتى يتم تخريج المجتهدين على أساس هذا المستوى من الدراسة.

[۴۶] لقد كان هذا الموقف يشبه موقف بعض الناس من تأسيس المدارس الحديثة أو مدارس البنات، ولكنه أكثر شدّة.

[۴۷] بعد وفاة الإمام الحكيم وتعليقاً على مرجعيته ودورها فى الأمَّة كان الشهيد الصدر يقول فعلى ما أتذكر- إنّ المسؤولية أصبحت كبيرة والمعركة أكثر ضراوة بسبب أنّ الأعداء قد فتحوا عيونهم على «المرجعية» وقدرتها والإمكانات الكبيرة الموجودة بالقوة فيها وما يمكن أن تقوم به من تعبئة للأمَّة فى المواجهة مع الأعداء والدفاع عن الإسلام والأمَّة.

[۴۸] كانت فكرة الشهيد الصدر، فى «النظام الطبيعى»، هى الاحتفاظ بنظام الحوزة العام تغييره، ولكن إدخال إصلاحات أساسية فيه مثل تشخيص الأساتذة الجيدين أو الجديرين بلقب الأستاذية فى وسط الحوزة العلمية وعلى جميع المستويات، ثمَّ الطلب من طلاب العلوم الدينية الدراسة عند واحد من هؤلاء الأساتذة، مع الطلب من الأساتذة أنفسهم بوضع تقييم للطلبة فى دراستهم، ويكون

ذلک هو الأساس فی نظام الحقوق الماديَّة والرواتب وغيرها، والمعنوية من الدرجة العلمية والإرساليات والوكالات وغيرها التی يحصل عليها طلاَّب العلوم الدينية.

[۴۹] كان ذلک فی بداية سنة ۱۳۹۲هـ ـ ۱۹۷۲م.

[۵۰] كان اعتذار هذا الأخ عن هذا الموضوع -كما حدَّثنی الشهيد الصدر- هو أنه كان يعتقد أنه مشمول بالاستثناء الذی ذكرناه فی الفقرة (۴) آنفاً، وأنه لم تتهيأ له الفرصة لأن يبلغ بالقرار جميع المرتبطين وقد عاجلته الأحداث، ولكن الشهيد الصدر لم يكن مقتنعاً بكفاية هذا العذر لارتكاب هذا الخطأ الكبير كما صرّح بذلک، وكان يری فعلی الأقل ف ضرورة إخباره بهذا الأمر، خصوصاً وأنّ الشهيد الصدر لم يكن علی علم بانتساب هذا الأخ للتنظيم الخاص، ولم يكن يظهر عليه شیء من ذلک، واستفاد عملياً وواقعياً من موقعه ومن اعتماد الشهيد الصدر عليه وكذلک اعتماد جهاز الشهيد الصدر وأصدقائه علی هذا الأخ فی الامتداد الواسع فی أجهزة مرجعيته والحوزة ف لقد كان الأخ المذكور مشرفاً تربوياً علی إحدی المدارس التی أسَّسها الإمام الحكيم، وكان يقوم بنشاط حزبی فی هذه المدرسة؛ الأمر الذی أثار بعض أبناء الإمام الحكيم؛ حيث لم يكونوا يوافقون علی ذلک، ولكن كاتب هذه السطور كان مسؤولاً عن المدرسة وكان يدافع عنه اعتقاداً بعدم صحة هذه الأخبار والاتهامات حتی تبيّن صحتها بعد ذلک-ولعلّ الأخ المذكور له عذر آخر واللّه أعلم.

[۵۱] لقد قمت بإبلاغ بيان الشَّهيد الصَّدر إلی المرحوم الشيخ عارف البصری، وذكر فی حينه أننا لا نجد فرقاً بيننا وبين الشَّهيد الصَّدر ولا يمكن أن نختلف معه، ولكنَّ الأحداث تسارعت واعتقل الشهيد الشيخ عارف بعد ذلک بمدّة قصيرة، ثم كانت شهادته المباركة.

[۵۲] كتابة الفتوی ونشرها وإن كانت تمثل موقفاً سياسياً، ولكنها، فی الوقت نفسه، تعبّر عن خلفية فكرية ونظرية للشهيد الصدر أبلغها شفهياً قبل صدور الفتوی، وقد عارض بعض الطلبة فمع

الأسف- البلاغ الشفهى، ولم يقبلوه بل تحدثوا عن الشَّهيد الصدر بحديث غير لائق، وصبر عليهم الشهيد الصدر حتى تطورت الأحداث فدوَّنها وأبلغها للأمَّة.

[۵۳] وخلاصة القصّة، فى موضوع انتفاضة ۱۷ صفر: أنّ الدكتور السيد مصطفى جمال الدين - الأديب والشاعر المعروف- إلتقى بالشهيد الصدر عصر يوم السابع عشر من صفر بعد الأحداث الأليمة والعودة التى وقعت فى «خان النص» والتى ذهب ضحيتها بعض الشهداء، وفيهم امرأة لبنانية، وطلب من الشهيد الصدر أن يتدخل فى تهدئة الأوضاع قبل أن تنفجر فى صراع دموى واسع يذهب ضحيته عدد كبير من الناس لا يعلمه إلاّ اللّه. وقد كانت خطة الحكومة تعتمد على الخطوات الآتية: ۱ ـ استفزاز الناس وأصحاب الشعائر ليقوموا بأعمال شغب عامة. ۲ ـ الطلب من رجال الدين والوجهاء التدخُّل لتهدئة الأوضاع، وكانت تفترض أنّ الشعب سوف يرفض ذلک۳ ـ القيام بتوجيه ضربة عسكرية واعتقال العناصر المؤثرة لمنعهم من الوصول إلى كربلاء. وكانت الحكومة تشعر بحرج كبير لهذا التحدِّى الجماهيرى الكبير لها لأول مرة بعد مرجعية الإمام الحكيم (ره). وقد قامت الحكومة بالخطوة الأولى، ونجحت فيها، ثم قامت بالخطوة الثانية فأرسلت وفداً من كربلاء واجهته الجماهير بالرفض، وطلبت بعد ذلک إرسال وفد من قبل آية اللّه السيد الخوئى وآية اللّه الشهيد الصدر. ورأى الشَّهيد الصدر الاستجابة لهذا الطلب، وطلب منى أن أقوم بهذه المهمة فذكرت له بعض المخاوف من خطة الحكومة للخداع وتسويغ ضرب الجماهير، ولكنه(قده) كان يرى صحة هذا العمل واستخرت اللّه مرَّتين للإصرار على الرفض ـ فجاءت الاستخارة نهى. فتوكلت على اللّه تعالى -بعد أن وضعت خطة فى ذهنى للاحتياط للأمة وللقضية- وكانت المعركة التى يدور حولها الصراع هى استمرار الشعائر الحسينية كما تريد الجماهير أو منعها كما تريد الحكومة، فطلبت من الحكومة أن أتلقى الطلب رسمياً وأن تتعهد رسمياً بالانسحاب عن قرارها بالمنع لأنقل ذلک إلى الجمهور وأطلب منهم الهدوء بعد أن استجابت الحكومة لمطاليبهم. وعلى أساس ذلک، اجتمعت بالمحافظ، وهى أول مرة أجتمع فيها بالمحافظ، وهو «جاسم الركابى»، فى داخل مركز النجف طوال حياتى، واستمعت إليه يعلن رسمياً التراجع عن موقف الحكومة، وذهبت إلى خال النخيلة فى ليلة ظلماء مطيرة وعاصفة. وكان الجمهور متفرِّقاً فى زوايا الخان وأواوينه والمكان

مظلم، ولما عرف بعضهم بورودى اجتمع عدد منهم فى حدود عشرين شخصاً وكان فيهم بعض المسؤولين عن إدارة المسيرة، وتحدثت إليهم أنّ موقفنا معهم ونحن نقف إلى جانبهم فى هذه المطاليب والشعائر يجب أن تستمر، فأخذوا يتظلمون من العدوان والاستفزاز والقتل، وكانوا يشعرون بالحرج ويرحِّبون بأى حل لهذه المشكلة ويتخوفوَّن من الغدر.فاتفقت معهم على هذه الصيغة، وهى أن يلتزموا بالانضباط بالشعائر وتلتزم الحكومة علناً فى خطاب جماهيرى بالتراجع عن قرار المنع، على أن يتم هذا الخطاب صبيحة اليوم الثانى فى «خان النخيلة»، ومن هناك تنطلق المسيرة إلى زيارة الإمام الحسين(عليه السلام) بصورة منظَّمة. وبعد هذا الاتفاق، رجعت إلى النجف واجتمعت مرة أخرى مع المحافظ، وكان الوقت متأخراً قريباً من منتصف الليل. ورأيت المحافظ كأنه قد فوجى بهذه النتائج والاتفاق، فقال: سوف أتصل بالقيادة البعثية فى بغداد ويبلغنى بالنتائج صباحاً لنذهب إلى خان النخيلة مرة أخرى. ولكنَّه لم يتصل إلى الساعة التاسعة صباحاً، واتصل السيد مصطفى جمال الدين فى ذلک الوقت وأبلغته ما حدث وعدم اتصال المحافظ. ثم إنَّ المحافظ، بعد قليل، اتصل وقال: إنّ أصحاب الشعائر الحسينية قد قطعوا الشارع العام منتصف الليل (وكان ذلک كذباً) فاضطرّت (القيادة!) أن تستخدم الجيش والقوات المسلّحة لإقرار الأمن والنظام. وعرفت، بعد ذلک، أنّ النظام قد استخدم اللواء المدرع الموجود فى معسكر مدينة المسيب، وأرسل عدة طائرات مقاتلة لتكسر حاجز الصوت وتحلّق بشكل منخفض لإرعاب الناس وحاولوا إيقاف المسيرة، وقاموا باعتقال أبناء الشعب بالجملة. ولكن أبناء الحسين(عليه السلام) استمروا فى مسيرتهم وسلكوا طريق البساتين والنخيل حتى وصلوا إلى هدفهم فى صحن الإمام الحسين(عليه السلام) والعباس سلام اللّه عليه، وحققوا هدفهم رغماً عن أنف النظام وبالرغم من جميع هذه الإجراءات. وبدأت حملة اعتقالات وتعذيب واضطهاد واسعة بعد ذلک؛ حيث تمَّ اعتقالى بعد ثلاثة أيام، وكذلک اعتقال الشهيد الصدر وأخى الشهيد حجة الإسلام السيد علاء الدين وأحد عشر ألفاً من مختلف طبقات الشعب العراقى، وخصوصاً أبناء النجف الأشرف والمناطق المحيطة بها، وفيهم عدد كبير من طلبة الحوزة العلمية. وللاعتقال والتحقيق والتهمة حديث آخر، ولكن النظام حاول أن يلقى بالتهمة والمسؤولية على الخارج (سوريا) علناً والكويت فى مراكز التحقيق، وعندما فشل فى ذلک اعترف بالحقيقة واهتزّ الحزب من الداخل وطرد عضوين قياديين كانا من أعضاء المحكمة الثلاثة الذين تولوا مسؤولية المحاكمة لامتناعها عن المشاركة فى الجريمة، وهما عزّت مصطفى

وفليح جاسم الحسن، وتحمّل المسؤولية فى المحاكمة كاملة العضو الثالث حسن العامرى. وقتل النظام صبراً أكثر من عشرة، وحكم بالسجن المؤبّد من دون محاكمة على ستة عشر شخصاً كنت أحدهم، والتهمة أنّى كنت قد شجَّعت الحسينيين على الاستمرار فى المسيرة، وطالبت السلطة بالتراجع عن موقفها علناً، وأفشلت خطّة الحكومة.

[۵۴] لقد كلّفت بالقيام بهذه المهمة تجاه بعض هذه التنظيمات، وأظنُّ أن الشَّهيد عيَّن أحد طلاَّبه الفضلاء لذلک تجاه تنظيم آخر.

[۵۵] لقد ذكرنا أنّ الشهيد الصدر ضغط على التنظيم الخاص لتأييد موقف مرجعيَّة الإمام الحكيم تجاه حكومة البعث فى بداية مجيئها إلى السلطة، وعند سفر الإمام الحكيم إلى بغداد. ولكنه لاحظ الموقف المتردد والمتحفظ من التنظيم الخاص، ثمَّ أصبح هذا الموضوع واضحاً لديه عند سفره إلى بيروت فى تلک السنة لغرض التعبئة؛ حيث كان موقف التنظيم الخاص هو التردُّد فى التعاون المناسب فى هذا المجال، ولولا حماسة بعض عناصر التنظيم كالشيخ على الكورانى من جهة، والعلاقة الوطيدة بين الشهيد الصدر وبعض أفراده من طلابه ومريديه، وكذلک الموقف الإيجابى للمجلس الإسلامى الشيعى الأعلى بقيادة آية اللّه السيد موسى الصدر، والقاعدة العريضة للمرجعية فى لبنان، لما أمكن للشَّهيد الصَّدر أن يحقق شيئاً فى هذا المجال. وتوجد رسالة بخط الشهيد الصدر (ره) يتحدث فيها عن هذا الموضوع يشكو فيها هذا الهم والألم، كما كان حديثه حول (المحنة) يعبر عن هذا التصور.

[۵۶] لقد كلفنى الشهيد الصدر بذلک فى سفر ۱۳۹۵هـ إلى بيروت، كما كلف آخرين بذلک.

[۵۷] لا شک فى أنّ خصوصيات الشعب الإيرانى المتعددة وقوة جهاز المرجعية الدينية والعلماء وعمق وجودها وما يتمتع به الإمام الخمينى من مواصفات كان لها أثر مهم أيضاً فى هذه النتائج.

[۵۸] الدروس الأساسیة فی مرحلة الخارج هی الفقه والأصول، والأول أهم من الثانی، ویدرَّسان عادة خمسة أیام فی الأسبوع بخلاف التفسیر فإنه لم یکن أساسیاً، ولم یعرف علی مستوی المراجع تدریسه فی العصور المتأخرة إلاّ نادراً؛ حیث قام آیة اللّه السید الخوئی بتدریسه لمدة محدودة ثم انقطع عنه.

[۵۹] کما أخبرنی (رضوان اللّه علیه) بذلک شخصیاً.

[۶۰] لقد کلَّفنی الشهید الصدر بکتابة هذه الرسالة، وقد دوَّنتها ثم عرضتها علیه، وبعد إقرارها من قبله تم إرسالها إلی الخارج باسمه بعد أن استنسخها بخط یده. واطَّلعت علی نشرها فبعد ذلک‌ف فی صوت الدعوة، وهی النشرة السرِّیة الخاصة لحزب الدعوة الإسلامیة.

[۶۱] تعطَّل نشاط هذه الحرکة بسبب تحوُّل موقف حزب الدعوة منها من المشارکة إلی المعارضة، بعد أن قرَّر الحزب أن ینتقل إلی المرحلة السیاسیة والتصدی العلنی وطرح اسمه فی هذه المواجهة، ومن ثم فلم یکن یری مسوِّغاً لوجود هذه الحرکة، بل کان وجودها إلی جانب الحزب یعبر عن انشقاق فی صف الحرکة الإسلامیة کما کانوا یفسرون بذلک موقفهم السلبی منها بعد ذلک.

[۶۲] لم یکن فی نیة الشهید الصدر الهجرة إلی الخارج فی تلک المدة، ولکن جاء فی البرقیة الإشارة إلی ذلک، ولم أعرف حتی الآن السبب أو المغزی من هذه الإشارة، ومن المحتمل وصول أنباء إلی الإمام الخمینی بذلک أو أنه أراد أن ینبه الشهید الصدر إلی عدم صحة ذلک لو کان فی نیته هذا الأمر بهذه الطریقة، أو أراد أن یعبّر عن دعمه للشهید الصدر بهذه الطریقة؛ حیث لم یکن

يتوقع الإمام أن يقوم النظام بهذه الجريمة الوحشية ضد الشهيد الصدر، وقد نقل هذا الاحتمال بعض الأشخاص لى أخيراً.

[۶۳] هذه الأحداث هى المعروفة بانتفاضة صفر.

[۶۴] تحدَّثنا عن هذه الفكرة فى مقال مستقل نشر فى جريدة لواء الصدر.

[۶۵] يمكن ملاحظة هذا التقييم والتصور حول النجف والحركة الإسلامية فى العراق فى ما كتبه السيد حميد روحانى عنها فى كتابه: «نهضة الإمام الخمينى»، وهو شخص كان إلى آخر أيام الإمام على صلة وثيقة بمكتبه، وقد لمست ذلک أيضاً عند الهجرة إلى إيران من بعض هذه الأوساط، ولولا تدخل الإمام شخصياً وتكليف آية اللّه السيد الخامنئى بمتابعة قضية العراق لاستمرَّت المأساة بحجمها الكبير.

[۶۶] ذكرت بشكل مختصر هذه الملاحظات فى بحث «القدوة فى النظرية الإسلامية»، وفى بحث «القيادة النائبة».

[۶۷] لقد تميَّزت هذه النداءات بطرح سياسى وحدوى يقوم على أساس وحدة الأمَّة فى العراق بين الشيعة والسنَّة والعرب والأكراد والتركمان والمطالبة بالحقوق الأساسية للإنسان، ومنها: الحرية والعدالة والمساواة وأنّ الشعوب هى أقوى من الطغاة، فلا بد من أن يتحقق النصر على يدها إذا وظّفت طاقاتها فى المعركة، إلى غير ذلک من المفاهيم المهمَّة.

[۶۸] وهنا لا بدّ من أن أسجِّل للتاريخ أن الشهيد الصدر كان يشعر ببعض الإحباط تجاه بعض الأخبار والمواقف فى إيران؛ حيث كان يسيطر على توجيه حركات التحرُّر أشخاص لا يثقون بالشهيد الصدر ولا بالحركة السياسية الإسلامية العراقية، كالسيد مهدى هاشمى، ويشجعهم بعض الأوساط السياسية العراقية المحيطة بهم ممن يرتبطون بالسيد محمد الشيرازى فى ذلك الوقت، وذلك انطلاقاً مما ذكرته فى الهامش ۶۴.

[۶۹] انتهت الجمهورية الإسلامية إلى هذا التصور بعد ذلك عندما تم تصوّر فصل الولاية السياسية عن المرجعية الدينية وإقرار تصدى المجتهد الجامع للشرائط لقيادة الأمة سياسياً وشرعياً (المرجعية السياسية الدينية) حتى لو لم يكن هذا المرجع الدينى مرجعاً عاماً فى الفتوى.

[۷۰] تشخيص هذا الدور يرتبط بطبيعة ـ الظروف التى تمر بها الأمة والمنافسات السياسية والأوضاع التى تعيشها المرجعية الدينيَّة، ولكن مهما كانت هذه الأهمية كبيرة فلا يمكن تجاوز الخطوط الحمراء التى وضعها الإسلام والتصميم العام للمرجعيَّة من قبل الأئمة، وقد أُشير إليها فى النقاط الأولى والثانية والثالثة. تشخيص هذا الدور يرتبط بطبيعة ـ الظروف التى تمر بها الأمة والمنافسات السياسية والأوضاع التى تعيشها المرجعية الدينيَّة، ولكن مهما كانت هذه الأهمية كبيرة فلا يمكن تجاوز الخطوط الحمراء التى وضعها الإسلام والتصميم العام للمرجعيَّة من قبل الأئمة، وقد أُشير إليها فى النقاط الأولى والثانية والثالثة.

[۷۱] ولذلك هانت التضحية العظيمة والخسارة الفادحة بفقد هذا العالم الربَّانى المؤيّد، وهو الشهيد الصدر (رض)، لأنه كان يرى أنّ هذه الجمهورية تمثِّل القاعدة القوية والضمانة الحقيقية لمستقبل الإسلام، وفى الوقت نفسه يمكن أن تتمركز آثار التضحيات فى مسيرتها وحركتها فلا يضيع منها شىء.